حكايات العشق الخمس

البحث عن الروح يبدأ برحلة إلى الداخل

رواية

جهاد السيسي



دار اكتب للنشر والتوزيع





حكايات العشق الخمس

حكايات العشق الخمس

البحث عن الروح يبدأ برحلة إلى الداخل

جهاد السيسي

الطبعة الأولى، القاهرة 2019 م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: 26853 /2018

I.S.B.N: 978-977-488-617-1



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: 12 ش عبد الهادي الطحان، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة، مصر

هاتف: 01111947957

بريد إلكتروني: daroktob1@yahoo.com

إهداء أول

إلى كل المشاعر الساكنة فينا دون أن نجد لها تعريفاً، إلى كل الأسئلة المتروكة داخلنا دون أن نجد لها أجوبة، لماذا لم نُدرك بعد أنه كلما اكتشف الإنسان ذاته من الداخل بشكل أفضل تفتحت رؤيته على الخارج؟

***

إهداء ثانٍ

إلى كل من مر بتجربة مع الألم، أهديك هذه الرواية.

***



مذاهب العشق كثيرة، وعشق الرجل للمرأة أدناها، بينما عشق الروح لمصدرها أعلاها، وكل عاشق عليه أن يتخير معشوقه الذي لا يأفل والذي يستأهل محبته.

الكاتبة...

..مشهد..

9 فبراير 1986..

"هذا وقد تم رصد المُذنب الأكثر شهرة على مر العصور، اليوم الموافق التاسع من فبراير لعام 1986، ومن المُفترض أن يُعاود المُذنب ظهوره مرة أخرى بعد ستة وسبعين عامًا وفقًا للحسابات الفلكية في منتصف عام 2061، والجدير بالذكر أن المذنب هالي يُرى بالعين المجردة، ويقول الفلكيون إن هذا المُذنب يظهر مرتين فقط في حياة الإنسان".

***

– انظر إلى الضوء الساطع المنبعث منه يا فؤاد، كم هو جميل ومتألق يا حبيبي!

– لديكِ كل الحق يا جميلة، إن الوهج المُتألق منه والذي ينير السماء في المساء، يخلق في القلبِ هالة من الخشوع تفوق الوصف.

– ولكن ما قصة ذلك المذنب الذي يُدعى هالي؟

_ المذنب يا عزيزتي ما هو إلا جسم يجمع الغبار والثلج في جوفه ويدور حول الشمس في مدارات قد تكون منتظمة أو غير منتظمة، توجد بعض المذنبات التي تدور حول الأرض عبر مدارات طويلة المدى، كما توجد كذلك المذنبات التي تدور حول الأرض في مدرات قصيرة المدى كمذنب هالي الذي نراه الآن.

– لقد استبشرت خيرًا يا فؤاد بمرأى المذنب هالي في التلفاز ولا أعلم لماذا، فهذا الوميض المتألق والأخاذ في آن واحد يُريح العين..

– سبحان الله أنتِ تستبشرين بمرآه الخير في حين أن البعض فيما مضى كان يخشى من حدوث مثل هذه الظواهر الكونية؛ لأنه كان يجهل معناها، ولذلك فقد كان يراها نذير شؤم، وأنها تتوعد أرضه بحدوث كوارث طبيعية قد يعجز عن مجابهتها ـ وذلك في حال اقترابها الشديد منها أو اصطدامها بها!

– اتفل من فمك ولا تقل ذلك، فهالي نجم متوهج وعالٍ في السماء، يتشوق الجميع لرؤيته.

– لكنه ليس بنجم يا جميلة، هو مذنب، ميم وذال ونون وباء، مذنب.

– لا يهمني اسمه، فكل ما يهمني هو وصفه، ضوؤه وجماله وتألقه في أعين ناظريه، ما رأيك ياحبيبي أن نسمي مولودنا القادم إن كان بنتًا هالي؟

- مممم..هو اسم غريب لم أسمع به من قبل بين الفتيات، ثم من أدراكِ أن هذا القادم سوف يكون بنتًا؟ قد يكون ولدًا فهل ستسمينه هالي وقتها؟

- سـأبحث حينها عن اسم آخر لنجم جميل لكي يتماشى معه، ثم إنني أشعر بأن القادمة صبية، فتلك الحركة في أحشائي، تُنبئني أن القادمة سوف تصير أنثى جميلة مثل أمها.

- ما أعجب النساء! تتحدثين بثقة عن المولود، وتُحددين نوعه أيضًا، وتتحدثين عن جماله وكأنكِ قد رأيته من قبل!

- تقصد جمالها، جمال هالي، فقلبي هو الذي رآها قبل عيني، وهو الذي ينبئني بأنها صبية.

- يبدو أن الغلبة سوف تكون لكِ في النهاية يا عزيزتي..

إذن فلتكن هالي!

- أوتعملين يا جميلة كم أخشى عليها كثيرًا من ظروفنا الحياتية غير المستقرة، حتى أنني لا أعلم هل كان قرارينا بالإنجاب في هذا الوقت صائب أم لا؟ أم أنه لم يكن علينا أن ننجب أبدًا؟

- الله هو من أراد لهالي أن تأتي وليس نحن، وقرارات الله تكون دومًا صائبة، لذلك فالخير في قدومها يا فؤاد

- أتمنى ذلك يا جميلة، أتمنى.

***

التيه

"كانت تحاول أن تستكشف وتُفتش في قلبها، لكن الخريطة

قديمة والبوصلة لا تعمل" نيكولا باركر

1

بالطبع لا أذكر هذا الحديث الذي دار بين فؤاد وجميلة، وإن كنت وقتها أجلس معهما - داخل رحم جميلة - أحتمي بخلاياها الدافئة من صقيع فبراير، كنت أستمع وأنا في هذا القرار المكين إلى صوت رخيم عرفت فيما بعد أنه صوت أبي، وقد كان الصوت يوّجه حديثه إلى صوت آخر ناعم تقتر مخارج أحرفه بالدفء والرقة والعذوبة، وقد عرفت فيما بعد أيضًا أنه صوت أمي، فالعالم الرحمي هو عالم الأصوات - بالنسبة إلينا نحن الأجنة- التي لا نستطيع في ذلك الوقت أن نتعرف على سواها، وعلى الرغم من أننا لا نُميز غيرها من العالم الخارجي والذي يحجبنا عنه ستار كثيف، فإننا لا نتذكر استماعنا إلى أيٍّ منها حينما نأتِي للدنيا، ربما لأن هناك ذاكرة جديدة نولد بها حينما تُكتب أسماؤنا على شهادة ميلادنا بالأرض، وربما لأننا نحن البشر ننسى أغلب الذكريات التي نصنعها بمضي الوقت بعيدًا عنها، رغم أن تلك الأصوات هي أول الأشياء التي تُمهد سبيلنا للولوج إلى ذلك العالم المجهول، والجديد بالنسبة لنا..

ولذلك فقد كنت بالطبع لا أتذكر أي كلمة مما قيلت في ذلك اليوم، إلا أنني أعرف تلك القصة جيدًا، وذلك حينما قصتها على مسامعي جميلة في القليل من الأوقات التي تحدثنا فيها فيما بعد.

قالت لي جميلة إنها ما إن أخذت موافقة فؤاد على الاسم حتى انطلقتُ أركل بطنها بلا هوادة مسببة لها ألما شديدًا..

يبدو أنني كنت حماسية للغاية، وكأنني أصفق لها على اختيارها لاسم مختلف بشكل مبالغ فيه، لأعلن لها عن لهفتي الشديدة في أن أرى الدنيا وأن أصبح صاحبة هذا الاسم المختلف.

لم أخيب ظن جميلة فيّ، وأتيت تمامًا كما تمنت هي، صبية مليحة، لكي أحمل هذا الاسم الذي اختارته لي، ولكي أكون كما اخترت لنفسي أن أكون..

فقد خضت وحدي الكثير من التجارب فيما بعد لكي اقترب من حقيقتي، ولكي أتمكن من نفض الغبار المتراكم عن شرفات جسدي وروحي لعلي أعرف من أنا، ولماذا أتيت إلى هنا؟ ولماذا لم أكن أتوقف عن التساؤل أو التفكير ذلك الداء الخطير، الذي عرفت أنه لا شفاء لي منه؟

ترى، لو كانت الأقدار قد اختارت لي اسمًا آخر، ولو كنت أملك جدة أخرى غير بنفسج وأب غير فؤاد وأم غير جميلة كنت سأصير وقتها غير ما أنا عليه الآن أم أنني كنت سأخوض التجربة ذاتها، ولكن بتغيرات قدرية طفيفة لا تؤثر في القيمة التي أتيت للحياة من أجلها ولا في الدروس التي يجب عليّ أن أتعلمها فيها؟

أشعر بالامتنان لكل ما حدث لي على الرغم من قسوته أحيانًا، لأن كل التجارب التي مررت بها هي التي جعلت مني المرأة التي تتخطى كل الصعوبات التي تبرز لها، وبدون كل تلك الأشياء ما كنت لأصير ما أنا عليه في نهاية المطاف.

لقد كنت وما زلت أبحث عن كل الأسباب التي تيسر لي رحلة الوصول إلى تلك الشواطئ الأمنة التي أجد عندها رمال الحكي الذي لا يتوقف، وكثبان المعرفة الروحية التي لا تنضب، فربما كانت المعرفة هي النهر الذي يرتوي منه الإنسان ليصير بها كما أراد له الله، وربما يصير ما اختاره هو لنفسه على الرغم من معرفة الله المسبقة به، مثلما يعرف كل خلجات صدورنا..

ما مررت به جعلني أجد الإجابة عن تساؤل طالما طرحه الكثير منا وهو: هل نريد نحن لأنفسنا؟ أم يريد لنا البعض فنصير كما أرادوا لنا أن نكون؟ أم أن إرادة الله فوق كل هذا وهي التي تكون وهي التي تُصيّرنا إلى ما نحن عليه؟ فتضع في حياتنا الأسباب المتمثلة في أشخاص وأحداث ليصقلوا أرواحنا البكر لنتكوّن، ونتشكل، ونصير نحن عبر الرحلة القصيرة التي تستغرق أعمارنا بأكملها، فنبدأ في اكتشاف هُوياتنا، حينما نجدف عبر نهور البحث عن ماهيات الأشياء، وحينما ننطلق إلى الأفق الرحب حتى نصل إلى مصبات الحكمة.

إن حكايتي مع بنفسج على الرغم من قصر فصولها، فإنها قد سيّرت حياتي بأكملها، ولا أعلم هل عذبتني بنفسج بما فعلته بي أم أنها قد أراحتني وأعدتني لكل ما قابلته خلال تلك الرحلة؟

كل ما أعلمه هو أنها قد أرادت لي أن أصل إلى ما لم تصل إليه هي فجعلتني أبدأ من حيث توقفت، حتى أكمل الطريق الذي سارت فيه ذات يوم والذي تمنت أن أصل من خلاله لشيء ما، فاضع بقدم أحد بعدي على ما انتهيت إليه أنا، ربما يصل أحدنا ذات يوم في هذا الكون اللامتناهي إلى الحقيقة التي يبحث عنها الجميع إلى يوم يبعثون.

قد تبدو كلماتي أشبه بالطلاسم، ولكن لكي يفهمها إنسان، لا بد أن يمر بما مررت ويُلاقي ما لاقيت ويشعر بما شعرت، ولهذا السبب أجد ما لاقيته خلال رحلة حياتي حتى الآن جدير بالكتابة، لعل النور يصل إلى روح كل من يقرأ كلماتي.

***

2

ما زلت أذكر حكايات بنفسج المتعددة لي، والتي كلما كبرت أرى في كل حكاية منها رؤية مختلفة، قد تكون أنضج، وقد تكون أعمق، فأعرف سرًّا جديدًا لم أنتبه إليه من قبل، وأكتشف معنى جديدًا لم أكن أراه بعيني التي لم تكن تدرك كل الحقيقة رغم أنها تراها، فالأشياء هي ذاتها نفس الأشياء، ولكن تغيّر أفكارنا واستيعابنا لما حولنا من وقت للآخر هو ما يجعل من رؤيتنا مختلفة في كل مرة ننظر فيها إليها.

وهذا ما جعلني أدرك تمامًا أن الإنسان كلما كبر درجة، ارتقى في سلم النضج درجات، وذلك تبعًا لمستوى الوعي الذي يلتقطه عبر رحلة حياته والتي لا يعلم متى ستنتهي ولا إلى أين ستتوقف، وعلى الرغم من أن النضج لا يُحتسب بالعمر، فإن مساحة العمر بأيامه المتسعة تتيح للبعض التعّرض لعدد أكبر من التجارب التي لو كانت الروح مُهيئة لالتقاطها بوعي كافٍ لارتقت وصارت أكثر حكمة..

ولكن هل توجد لتلك الرحلة نهاية؟ وهل ستنتهي القصة حينما يتوقف نبض القلب في الجسد الفاني، فنتوقف وقتها عن الارتقاء في مدارج البحث؟ أم أننا سوف ننتقل لمستوى آخر من الوعي ولا نتذكر المستويات الأخرى التي مررنا بها عبر رحلاتنا السابقة نحو مسارات الترقي في حديقة الملكوت الواسعة؟

***

3

حكاية العشق الثانية

- تماسكي يا جميلة، فالمولود في طريقه للخروج، والرأس قد قاربت على البزوغ، كل ما عليكِ فعله هو أن تأخذي نفسا عميقًا وتزفريه بقوة، تنفسي يا جميلة، ساعدي طفلكِ يا ابنتي".

كنتُ أكرر تلك الكلمات على جميلة من آن لآخر، حتى أساعدها على أن تلفظكِ خارج رحمها بسرعة، كم كانت ولادتك يسيرة يا هالي! لم تأخذ وقتا طويلًا، لكنكِ في نفس الوقت أرهقتي أمكِ للغاية، ربما لأنكِ الطفلة الأولى، البكرية يا حبيبتي كما يقولون، والبكرية دومًا تكون ولادتها متعبة، فوالدتكِ لم تكن قد خبرت بعد بتلك الأمور، فقد كنتِ أنتِ أول وآخر تجربة لها، وآلام المخاض تفوق آلام الحيض المتعارف عليها بين معشر النساء بمراحل عدة، فكانت تلك الآلام تُحدث الكثير من التقلصات التي تداهم الجسد المُثقل بجسدٍ صغيرٍ آخر، جسد يبحث عن

طريقة يخرج بها للحياه، جسد يعشق النور ويتلهف لرؤيته، كانت التقلصات تأتي لتذهب، وتذهب لتأتي، ولا ترحم كأنها زلزال يعصف بجسد جميلة الذي لم ينجح الحمل في إكسابه بضعة كيلوجرامات زائدة كما يحدث للكثيرات في أثناء تلك الفترة.

وبعد مدة خلناها من فرطِ الانتظار والقلق لن تأتيي، طللتِ علينا يا صغيرة..

"صبية مليحة كأمها"

انطلق لساني مُزغردًا كحال قلبي الذي كان يرفرف بسعادة كبيرة لا مثيل لها، فاليوم قد غدوتُ جدة، واليوم أدركتُ بنفسي صحة المثل القائل إن: "أغلى الولد هو ولد الولد"، أي إن أغلى البشر على قلب جدوده هم الأحفاد، وبالنسبة إليّ كنت أنتِ يا هالي أول وآخر وأغلى حفيدة في حياتي..

حملتكُ بين يديّ، ونظرتُ إلى اللوزتين الكبيرتين والممتلئين بلمعة مبهرة تكاد تخطف فؤادي، كانت عيناكِ واسعتين للغاية بالمقارنة بوجهكِ الملائكي الصغير، وعلى الرغم من أنكِ لم تكوني تنظرين إليّ ولا إلى غيري، فقد كنت على يقين بأنكِ تشعرين بي وبكلماتي التي تلوتها عليكِ، فقد كنت ممن يؤمنّن بالكيفية الغامضة التي تصل بها رسائل المحبين إلى ذويهم، وهذه كانت أولى رسائلي السرية لكِ:

– كوني مثل الهالة.

- المضيئة جدًّا، والبعيدة جدًّا، والتي تنير سماء كل من حولها، لا تستمدي لمعتكِ إلا من داخلكِ، كوني أنتِ مهما حدث، اقضِ عمرًا بأكمله في التفكير والبحث، اسألي في كل ما لا تعرفينه، ولا تتركي شيئًا دون أن تبحثي له عن جواب، اخلقي علاقة خاصة بينكِ وبين الإله، فالحياة ما هي إلا تجربة معه ليس إلا".

لا أعلم لماذا قلتُ ما قلت يومها، كل ما أعلمه هو أنني كنت أرى منكِ يا هالي عطية أتت من السماء، هدية لنا على الأرض، كنت أشعر أنكِ في يومٍ ما ستصيرين مصدرًا للنور للكثيرين، وأنكِ ستمرين بتجربة عشقٍ فريدةٍ ستُكسبك الكثير من القوة الروحية التي لا يصل إليها إلا كل من يقترب من المصدر ليغترف من النهر الذي لا ينضب.

أتذكر أنني قد سئلتُ بنفسج وقتها مستفهمة:

- هل خُلقت الأرض قبل السماء أم أن السماء هي التي خُلقت قبل الأرض؟!

احتضنتني بنفسج وقالت:

أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت، أيام ستة، كانت هدية من الله لنا نحن البشر، مع أرض وسماء تتسع لنا جميعًا منذ أول الخليقة حتى الآن، وحتى بعد أن نرحل نحن ليأتيَ غيرنا سنظل نحيا دومًا في ظل رحابة تتسع لكل زائر وتحنو على كل مغادر لأنه في حقيقة الأمر لا يرحل، بل ينتقل من حالٍ إلى حال، ومن مدارٍ إلى مدار، لكن نظرة البشريّ دائمًا ما تكون

قاصرة وشهوته دائمًا ما تكون حاضرة، فهو يريد الأرض ومن فيها وما عليها، يرى أن غيره يشاطره في رزقه، دون أن يُدرك أن له قدرًا ورزقًا لا ينال سواه مهما يفعل، فيتقاتل ويكره، يسب ويلعن، ولا يريد أن يذعن لحقيقة أن الأرض للجميع وأن السلام يمكن أن يتحقق عليها إذا كف عن طمعه فيما ليس له وغض طرفه عما في يد غيره، فالحكيم هو من يشتري روحه بنقاء سريرته وخلوها من كل خبيث وغث، لكن الإنسان عجول، طموع، لو كان له واد من ذهبٍ لتركه ليلهث وراء وادٍ ثانٍ.

وفي قصة الخلق، ما يفيد سؤالكِ عن أيهما قد وُجد قبل الثاني، الأرض قبل السماء أم السماء قبل الأرض؟ فكلها أسماء من خلق الله وكل فيم يهم هو أنهما هنا معًا يتعاونان من أجلنا، وأنكِ تنظرين إلى تلك الزُرقة بالأعلى والتي يُخيل إليكِ أنها زُرقة حقيقية وليست انعكاسًا لشيء آخر، وتسيرين على تلك الأرض الثابتة والتي يخيل إليكِ أنها ثابتة لا تتحرك أو تدور، في حين أن الحقيقة شيء آخر.

فما تعلمته يا هالي من قصة الأرض والسماء حينما بدأت شجرة الاستكشاف بداخلي تنمو من سُقيا بذور الشغف داخل أرضي المتعطشة لمياه المعرفة، هو أن كل ما نظنه حقيقة ما هو إلا عين الوهم، وأن عين الوهم قد يكون هو لب الحقيقة، وأنه لا توجد نهاية لشيء، فالحقيقة المطلقة هي وهم الجهلاء، وهي أمر نسبي ومتغير، يتغير تبعًا لأجزاء الصورة التي تتضح لنا حينما تُزال الغشاوة عن أعيننا فتتضح لنا الرؤية رويدًا رويدًا.."

كانت كلمات بنفسج مثل الطلاسم في سني الصغيرة، ولم أكن أفهم غالبية ما تقوله لي؛ ولذلك فقد غيرت الحديث في هذا الموضوع على طريقة الأطفال وقلت لها:

"إذًا احكي لي حدوتة يا بنفسج".

تبسمت بنفسج وقالت لي:

"كان يا مكان في غابر الأزمان، حينما لم يكن هناك زمان أو مكان سوى عرش الرحمن المقام على ماء، تسنى له أن يخلق السماء من دخان أخرجه من هذا الماء، ولما سما الدخان وارتفع، أسماه سماء، ثم جعل من الماء أرضًا وذلك حينما أيبسها، ثم قام الرحمن بعمل فتق في السماء فتكونت السبع سماوات، وحينما قام بعمل فتق آخر في الأرض تكونت السبع أرضين".

– وأين تلك الأرض التي تتحدثين عنها يا بنفسج؟

– الأرض على نون

– نون!! ومن نون؟

– نون الحوت.

– وأين هذا الحوت؟

– في الماء.

– وأين هذا الماء

- في الصفاة.

- وأين تلك الصفاة؟

- على ظهر الملك.

- وأين الملك؟

- على الصخرة.

- وأين الصخرة؟

- في الريح.

- عرش على ماء، وحوت على ظهر ملك يقف فوق صخرة، ما تلك القصة العجيبة يا بنفسج،لست أفهم منكِ أي شيء اليوم؟ فماذا تقصدين؟

- قد لا تفهمين الآن، ولكن ليس عليَّ سوى أن ألهمك بسؤالك.

- أي سؤال؟

- السؤال الذي ستقضين طوال رحلتك تبحثين عن إجابته.

- أي رحلة؟

- رحلتك على الأرض..

- وهل نحن مسافرون؟

- نعم يا هالي، كلنا مسافرون، حتى تأتيَ تلك اللحظة التي نصل فيها إلى وجهتنا، فنغادر القطار ونترك المحطة، لنستكمل الرحلة مع قطار جديد،

في محطة أخرى في مكان آخر حيث تتجلى لنا وجهة جديدة ومهمة لارتقائنا.

– وهل توجد لتلك الرحلة نهاية؟

– الرحلة لا نهاية لها، فالرحلة هي جزء من التجربة على الأرض، مع روح لا حدود لها رغم أنها تحيا داخل جسد محدود، ولذلك فحينما تأتي المحطة المناسبة لها، فكل ما يحدث هو أن تلك الروح تنطلق إلي عالمها الحقيقي، ذلك العالم الذي لا يحدها فيه المادة، لتري العوالم التي كان عليها أن تراها في الوقت المكتوب لها.

– يبدو أنني لن أفهم منكِ أي شيء اليوم!

– لا تتسرعي كبقية بني جنسنا،فكل شيء سيأتي في موعده، وستعرفين في الوقت الذي يصبح مقدرًا لكِ فيه أن تعرفين.

قبلتني بنفسج وانصرفت لكي أخلد للنوم، لكنني لم أنم سريعًا، فقد مكثتُ أتخيل شكل ذلك الحوت الذي يحمل الأرض على ظهره..

سألتُ نفسي وقتها: هل تلك الأرض التي نسير فوقها هي مجرد بقعة صغيرة على ظهر نون؟ وماذا إذا أراد هذا النون أن يتحرك من موضعه فهل سيلفظ الأرض من فوق ظهره؟ وهل سنسقط حينها في الماء ونغرق؟

كان تفكيري وقتها بدائيًا للغاية، وخيالي أكثر جنوحًا منه، ولذلك فقد أغمضت عيني، وحلمت بحوت ببياض الحليب، وبحجم كبير جدًا أكبر من كل حيتان المحيطات التي رأيتها في أحد البرامج الوثائقية مع بنفسج منذ

عدة أيام والتي كانت تتحدث عن أنواع المخلوقات البحرية وكان الحوت الأبيض أبرزهم، وقد كان الحوت الذي رأيته يحمل فوق ظهره جزيرة صغيرة، ويسبح في ماء لا أول له ولا آخر، وفجأة قام الحوت الضخم بنفث ماء غزير ومتناثر في كل اتجاه، حتى تساقط رذاذه في النهاية على فتاة صغيرة تحمل دمية أصغر منها في يدها اليمنى، وحينما عُدت بذاكرتي للخلف لأتذكر ملامح تلك الفتاة، وجدت أنها كانت أنا.

***

4

حكاية العشق الثالثة

- الرحلة شاقة يا بنفسج للغاية، ولم أعد قادرة على تحمل الصعود لأكثر من ذلك.

لم أكن أعلم سر إصرار بنفسج على أن تصطحبني معها في تلك الرحلة المرهقة والتي لا تناسب سني الصغيرة آنذاك، وكان كل ما قالته لأتصبر به هو أن هناك حكاية وغاية تنظرني في النهاية، وأنه عليَّ أن أتحمل قليلًا، من أجل لذة الوصول التي تُحفز كل كسول مثلي.

كانت بنفسج تعلم ولعي الشديد بحكاياها - على غرابتها- فما كان منها إلا وألقت لي ذلك الطُعم الذي يحمل بين طياته وعدًا بحكاية جديدة من حكاياها كمكافأة لي على تحمل المشقة، فما كان مني إلا والتقمت الطعم صاغرة، ربما لأنه لم يكن أمامي آية بدائل أخرى..

كنت أسير ممسكة يدها اليمنى بيسراي ذات الكف الصغيرة وحينما كانت خطواتي تتعثر قليلًا بين الحصيات والأحجار المترامية في كل مكان حولنا، أتوقف عن المسير قليلًا؛ لكي آخذ نفسًا عميقًا يُساعدني على إكمال الطريق، ثم أعود بعدها لأحاول أن أجدّ في السير حتى لا أثير ضيق جدتي..

كنت أتساءل طوال الوقت بلا توقف عن السبب الذي يجعلنا نقطع كل هذا الطريق الطويل من أجل الوصول إلى ذلك الجبل دون غيره، وما سر حالة الإصرار التي تملكت بنفسج - على كبر عمرها - من أجل صعوده رغم التعب الذي يعتري كلتينا؟ وأين المتعة في تلك الطرمساء التي تلفنا بعباءتها السوداء وتمنعنا عن رؤية الطريق، ولولا ذلك الكشاف الصغير الذي وضعته بنفسج في مقدمة جبهتي قبل بداية رحلة الصعود لما رأيتُ ما حولي، كنت أعود من وقت للآخر لأتحسس كشافي المضيء وأتأكد أنه لن يتوقف عن إنارة تلك العتمة التي تغشاني، ثم أعود لأتلصص النظر إلى كشاف بنفسج وأنزل منه إلى عينيها لأري فيهما تلك النظرة التي تُخبرني أنها لن تتوقف إلا حينما تصل بي إلي قمة الجبل، لم أكن أعلم ما الحكاية التي ستقصها لي حينما نصل ولا الغاية التي حدثتني عنها، فما كان مني إلا واستسلمتُ للأمر، وقلتُ لنفسي فلأترك لها الغاية، وأنتظر أنا الحكاية..

مرت ساعة ثم الثانية دون أن نصل إلى قمة الجبل وكنت كلما ضربت عيني إلى أعلى لأرى كم تبقى لنا من ذلك العملاق المتناهي الطول، لا أرى شيئًا، كان الفضول يساورني لكي أعرف موقعنا تحديدًا من تلك القمة

حتى أتكهن من خلال المسافة التي تباعد بيننا وبينها الوقت المتبقي للوصول إليها، ولكن المارد الأسود كان يقف خارج قمقمه، ويأبى أن يسمح لشذرات النور أن تُريني كم تبقى لنا لنلامس جبهة الجبل العصية والتي لا تقترب منا مهما اقتربنا نحن، والتي كلما زادت في البعد زاد العند لدى بنفسج لتصل..

أوجعتني قدماي فتوقفت متضجرة، توقفت بنفسج بدورها ثم أمسكتني من مرفقي ودققت النظر في عينيّ مباشرةً، وقالت لي:

- لن نتوقف حتى نبلغ.

أوقفت بنفسج جملًا بلون كريمي، يقف منتظرًا من يصعد به للجبل ويسوقه رجل بدوي يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا وزاهيًا، وفوقه إبطية بنيّة اللون، ويلف فوق رأسه منديل رقيق ومبروم عدة مرات بشكل محكم حتى لا يسقط عنه، وبينما أركب فوق الجمل قالت لي بنفسج:

- تلك المرة تركبين الجمل، ولكن المرة القادمة سوف تتحملين مغبة الصعود وحدكِ".

لم أفهم ماذا تقصد بنفسج بالمرة القادمة؟ وهل سأتحمل مثل تلك الرحلة مرة أخرى، فكفاني ما أنا فيه من ألم! كانت الأفكار تتقاذفني بين سناميّ الجمل الذي يسير بوتيرة بطيئة بمحاذاة حافة الجبل، والذي شعرتُ أن خُفيه سوف يتزلقان من فوقها فيسقط ويُسقطني معه، إلا أن هذا الصديق الهادئ - والذي شاركنا جزءاً لا بأس به من رحلة الصعود- لم

يسقط ولم يُسقطني كما خُيل لي، ويبدو أنه كان مدربًا بشكل جيد على السير في تلك المرتفعات الوعرة، فحمدتُ الله على أنه لم يحقق مخاوفي وإلا كنت من الهالكين لا محالة..

وبعد قليل أخرجت بنفسج كنزتيّ الصوفية من حقيبتها الصغيرة ذات الذراعين، والتي كانت تحملها فوق ظهرها كتلميذة نبيهة في مقتبل العمر، ثم ألبستني إياها حتى تعينني على تحّمل برودة الجو، التي كانت تتزايد كلما صعدنا إلى أعلى، وكلما مر علينا مزيد من الوقت الذي يتلكأ في سيره.

بدأت أعتاد وضعي الجديد فوق الجمل، وبدأ ألم قدميّ يخف قليلًا، كما أن الكنزة الصوفية صادقتني بالتدريج على برودة الجو،خاصة حينما توقفنا لبعض الوقت عند إحدى الاستراحات المقامة على الطريق، وشربنا شايًا بالحبق لذيذ المذاق وله طعم طيب، وقد سرت سخونته في كل خلايا جسدي المتلمسة للدفء حتى أطربته.

وبعد أن انتهينا من تناول الشاي، عاودنا استئناف الطريق مرة أخرى وفي ذلك الوقت سألتُ بنفسج:

- ألا تشعرين بالتعب مثلي؟

تبسمت وقالت لي:

- إذا كان الإنسان يملك قليلًا من الشغف، لكان التعب بالنسبة له مجرد ترف.

عدت لأسألها:

- وكيف أملك الشغف نحو جبل لا نستطيع أن نُدرك قمته وطريق مظلم وموحش وغير مُعبد؟

تبسمت بنفسج وقالت لي:

- حينما تكون الغاية أهم من كل شيء، يهون كل التعب، وحينما يتخطى العشق كل الحُجب، فنحن لا نسأل عن السبب!

ما تزال كلماتها على بُعد السنوات التي تفصلني عنها منقوشة داخل ذاكرتي بزخارف لا تُمحى، فبقاع القلب التي سكنتها الحمائم ذات يوم تظل تصدح بالألحان ما قُدر لها من مكوث، وحمائم بنفسج الطيبة ما زالت تعشعش على تلك الأغصان التي زرعت هي بذور شجرها بنفسها داخل قلبي الذي أثمر بمحبتها، فكيف ننسى الأشياء التي لامست أرواحنا مهما يمر عليها من سنوات طويلة؟

- انظري معي إلى السماء يا هالي.

وبلفتة مني لأعلى، هالني ما رأيت، فقد كان عدد النجوم في السماء لا متناهيًا والنجوم تتلألأ بنور فضي وتسبح في كل مكان لتُزين بساط السماء الممتد عن آخره فقلت لبنفسج:

- هذا العدد يفوق بكثير عدد كل النجمات الموجودة في مدينتنا.

ضحكت بنفسج حتى بدت نواجزها وقالت لي:

- قد يحيط بنا الجمال دون أن نتمكن من رؤيته أو ملامسته لأننا إما منشغلون عنه أو لأن هناك ما يحول بيننا وبينه، عدد النجمات لا يتغير من مكان لمكان، بل إن مجريات الأمور هي التي تتغير، فأضواء المدن المزينة بالقبح، وازدحامها الزائف بالسعي المادي، يغطي على كل ما عداه، حتى أنها تحرمنا من التمتع بكل هذا الجمال الذي يسكن السماء، كانت النجوم فيما مضى وسيلة تنقل العرب الوحيدة وسط الفيافي والقفار، فلم يكن هناك تكنولوجيا أو عمار مثل تلك الرفاهية التي نحيا فيها الآن، ولذلك كان الإنسان يستعين بالنجوم كعلامات ويرسم لها صورًا تشبه الخرائط التي نعرفها الآن، لكي يهتدي بها في طريقه، انظري إلى هذا النجم على سبيل المثال..

نظرتُ إلى موضع أصابيعها لأجد نجمًا كبيرًا ومميزًا عن بقيةِ إخوته ينتصف السماء ويزيد من إنارة ما حوله.

- هذا هو نجم الشمال، أو النجم القطبي كما يُطلق عليه البعض.

- ولكن، لماذا خُلقت النجوم في السماء يا بنفسج؟

- خُلقت النجوم لأسباب عدة يا هالي، منها هداية التائهين من ظلام الليل كما أخبرتكِ كما أنها رجوم للشياطين.

- ومن الشياطين؟

- تلك قصة كبيرة، ولكن دعيني أخبركِ بها إلى أن نصل..

"كان يا مكان في سالف الأزمان، حينما لم يكن هناك إنسان، كان النار والنور والطين هم الموجودات الوحيدة فقط، فتسنى لرب العرش أن يخلق من النور كائنات تحبه وتعبده ولا تعصي له أمرًا وأسماها الملائكة، وعيّن لكل ملك اسمًا، ثم أعطى كل واحد منهم مهمة خاصة به، فكان منهم من يسكن السماوات ومنهم من يعبده ويسبح بحمده، ومنهم من يحمل عرشه العظيم، ومنهم من يحمي هذا العرش ويكون مقربًا له، ومنهم من يحمي حديقة كبيرة موجودة في السماء أسماها الله الجنة، ومنهم من يحرس النار التي خلقها مثلما خلق الجنة، خلق الله من النار الجان وخلق أيضًا عزازيل، وكان الجان والملائكة وعزازيل يحيون في هذا الملك الواسع، حتى تسنى الله لحكمة جليلة يعلمها هو أن يبث نفحة من روحه في الطين لينبض ويعقل وينطق ليصير الإنسان، وحينما أتم الله صنعه كأبدع ما كان، أمر الملائكة والجان وعزازيل أن يسجدوا له جميعًا، فرفض عزازيل لأنه رأى أنه أفضل من ذلك المخلوق الذي سوّاه الله من الطين في حين خلقه هو من نار..

غضب الخالق من عزازيل غضبة شديدة لأنه عصى أمره في حين أطاعه الجميع ولأنه تهكم مما صنعته يداه، ولأن كِبره منعه من الإقرار بعبوديته، فألقى عليه جام لعنته وأخرجه من بهيج رحمته، وتوعده بالعذاب المُخلد في ميقات خفي محفوظ داخل مُجلد لا يطلع عليه سوى كاتب الأقدار ومُسيّر الأخيار، ولذلك فقد عزم عزازيل - إلى أن يحل ذلك الوقت المجهول- أن يثأر لنفسه بتربصه بهذا الإنسان الذي كان سببًا في لعنته،وأن يسعى لأذيته بقدر ما يستطيع لأنه سيكون سببًا في عذابه الأبدي.

ولهذا أوجد الله بعض الأجزاء من النجوم والتي تنفصل عن ذاتها في بعض الأوقات لكي تكون عقابًا للشياطين الذين يسترقون السمع للسماء لكي يتجسسوا السمع على أخبار أهل الأرض لأذيتهم يا هالي، ولذلك قام الخالق بتعيين بعض الملائكة لحراستنا من مكر الشياطين..

كنت منبهرة للغاية بتلك القصة الخيالية التي كانت تشبه قصص الأميرات السحرية في عالم والت ديزني الأثير لسني الصغيرة، فأخذت أردد عليها ما سمعت وقلت لها:

– هل تقصدين أننا مخلوقون من الطين؟

– نعم يا هالي..

– أنا من طين؟

– نعم..

– وأنتِ كذلك؟

– وأنا كذلك..

– هل تقصدين الطين الذي نسير فوقه؟

– ليس هو بالضبط لكنه مقارب له إلى حد ما..

زادت علامات الاستفهام داخل عقلي الصغير الذي كان أضيق من أن يتمدد ليتسع لمثل تلك القصة، والتي كنت أراها قصة أسطورية من زمن فات وأستبعد إمكانية حدوثها في عالم انتهت منه المعجزات.

فقلت لها:

- وهل نستطيع أن نرى الشياطين والملائكة؟

ضحكت بنفسج وقالت لي:

- بالطبع لا، فنحن لا نرى أي منهما مثلما لا نستطيع أن نرى الله أيضًا.

- ولماذا لا نتمكن من رؤيتهم؟

- لأن مدى الرؤية التي زود الله بها أبصارنا لا يستطيع رؤيتهم أو إدراكهم..

- وكيف أستطيع أن أصدق حكايتك عن مخلوقات لا وجود لها؟

- هناك الكثير الأشياء في هذا العالم تحيط بنا دون أن نراها، لكننا إذا لم نرها لا يعني هذا ألا نؤمن بوجودها أو نعطي أنفسنا الفرصة لكي نشعر بها.

صمتت بنفسج، وصمتُ معها، كنت أشعر بإرهاق شديد حتى أنني كدت أنام فوق الجمل إلا أن اهتزازه جسده في أثناء الصعود لم تمكنني من ذلك، أغمضت عيني قليلًا وفي مخيلتي رسمتُ صورة ذهنية لكرة من نار تصطدم بكرة من نور، فيحدثان صوتًا مفزعًا للغاية جعلني أفتح عيني على آخرهما، لأجد بنفسج تهمس في شجن:

- سلالم التوبة نقطة التقاء طريقين، عندها يجب أن نصعد بأنفسنا لنتطهر مثلما تطهر من قبلنا.

كنا قد وصلنا لمنطقة فرش إيليا والتي تنتهي عندها مقدرة الجمل على التقدم لأكثر من ذلك،بسبب وجود عدد مهول من السلالم يمتد عبر مرمى بصري وقد علمت فيما بعد أن عدد تلك السلالم كان قرابة السبعمائة والخمسين سلمة بناها راهب مجهول في القرن السادس لِيُسهل رحلة الألم على الحجاج حينما تتحول ذنوبهم لاعترافات يكللها الغفران والسماح على بوابة التوبة، كان على أن أصعد درجات السُلّم جميعًا دون مساعدة من أحد، وقد كنت أعلم أن الصعود حتمية لا مفر منها؛ ولذلك فلم يكن أمامي سوى أن أصعد مع بنفسج حتى نصل إلى الغاية والحكاية اللتين تنتظراننا في النهاية.

***

5

حكاية العشق الرابعة

ها نحن الآن نقف فوق قمة الجبل، الكثير من الناس فرحين بما أحرزوه من نجاح في التغلب على مشقة الصعود والوصول إلى جبهته العنيدة بعد رحلة استغرقت عدة ساعات، درجات الحرارة تنخفض عن مؤشراتها الطبيعية بمراحل تفوق احتمالنا، الجميع يرتدي طبقات كثيفة من الملابس الثقيلة،وعدد لا بأس به من شباب البدو يبيعون البطاطين والشاي الساخن لمن يتجمدون من البرد، بينما أنا لا أكترث لكل ما يحدث حولي، أعاند صقيع أطرافي ولا يسيطر عليَّ سوى رغبتي في معرفة الحكاية التي قطعنا من أجلها كل تلك الرحلة الشاقة، والتي من أجلها تكون الغاية التي أجهلها.

سألتني بنفسج قائلة:

- بماذا تشعرين يا هالي؟

قلت لها:

- أشعر بالسعادة الشديدة يا بنفسج لأننا وصلنا أخيرًا بعد كل هذه المعاناة، ولكنني أود أن أعلم منكِ لماذا صعدنا إلى هذا الجبل، وفي الليل على وجه التحديد؟ لماذا لم ننتظر حتى الصباح لتكون الرؤية أفضل ودرجة الحرارة أكثر دفئًا.

أمسكت بنفسج بكلتا يديَّ وأخذت تدلكهما برقة لتنعما بدفء غائب بينما تتحدث:

- هذا المكان يجمع بين همسات الطبيعة البدوية ونفحات الإله الروحية، هنا صوت الله يتحدث بمشيئته ورحمته لكل من يقترب من بهائه، هذا المكان يحتفل بطلوع الشمس على قمة جبل عظيم كل يوم، ومشاهدة الشروق هنا متعة شعورية لم تجربيها من قبل، وقد كنت أخشى أن تري المسافة التي سوف نصعدها في وضح النهار فترفضين الصعود معي؛ ولذلك فقد اعتمدت على الظلمة حتى لا تقدري المسافة جيدًا، فحتى الظلمة لها فوائدها أحيانًا كما تقولُ الشمس وذلك حينما تحجب عنا ما نخشى منه، وحينما تستر أرواحنا، وتتكتم على آثامنا، وحينما تخفي دموعنا، فلا شيء لم يُخلق لفائدة على تلك الأرض، حتى تلك الجبال التي ترينها حولكِ لها فوائدها أيضًا".

نظرتُ حولي لأرى الجبال وهي مكتسية بلون يقطيني بديع لم أر مثل بهائه من قبل،لكنني لم أفهم الحكمة من وجود كل تلك الصخور والأحجار المتراصة بجوار بعضها البعض، فكان لزامًا عليَّ أن أسأل، وكان لزاما على

بنفسج أن تجيب على الرغم من أن إجابات بنفسج لم تكن تُشبع فضولي، بل كانت تضعني في حيرة لا مثيل لها..

بادرت بسؤالها:

- لماذا خُلقت كل تلك الجبال؟

قالت لي:

- دعيني أبسِّط لكِ الأمر يا هالي، هل تذكرين ذلك اليوم الذي كنا فيه في أحد المعسكرات، وكنا نُقيم خيمة لنبيت فيها؟ ماذا حدث حينما وقع الوتد الذي تقوم عليه تلك الخيمة؟

تذكرت ما حدث يومها وقلت لها:

- وقعت الخيمة بأكملها..

فعادت بنفسج لتقول:

- إذًا فلا بد من وجود وتد لكي ترتكز عليه الخيمة، حتى تظل منتصبة، وهذا الأمر يشبه إلى حد كبير مهمة الجبال التي هي بمثابة أوتاد للأرض فهي التي تجعلها ثابتة حتى نستطيع أن نسير فوقها بأمان، وقد كان الناس فيما مضى ينحتون منازلهم ويقيمون سُكناهم في الجبال..

هززت رأسي مصدقة على كلماتها وقلت لها:

- لقد فهمت ما ترمين إليه، ولكنكِ أخبرتني أنك سوف تقصين عليَّ قصة، فما هي؟

- هل تقصدين قصة حوريب؟

- وهل هذا هو اسم القصة؟

- حوريب هو اسم الجبل بطل تلك القصة.

- لقد بلغ بي الشوق مبلغه من أجل سماع قصة حوريب..

- إذًا فلن أملك إلا أن أحكي:

"كان يا مكان، في سالف الأزمان، وفي تلك الأوقات التي خلق الملك فيها نوعًا مختلفًا من الجنود لحماية الأرض، جنودًا من مرتفعات وصخر، وكثيرًا من حجر يخيل للناس أنها لا قلوب لها، لأنها ساكنة لا تتحرك من مكانها، وقد أسماها الخالق بالجبال، وجعل لها أثقالًا وأشكالًا متعددة من بيض وغرابيب سود وحُمر مختلف ألوانها وكذلك أطوالها وأحجامها، ثم قام بتوزيعها على الأرض، وجعل لكل جبل مسئولية مقدسة، وهي حماية الجزء الذي ستوضع به، وكان من ضمن خلق الله جندي من نوع آخر، وُكّلت له مسئولية إضافية إلى جانب مسئولية حماية الأرض، فقد كان مقدرًا له أن يخوض تجربة عشق عظيمة لن يخوضها أي جبل آخر، كان هذا الجبل يُدعى حوريب، وقد كان جبلًا مميزًا منذ يومه الأول، لكنه ظل وقتا طويلًا منتظرًا لتلك اللحظة التي علم إنها لا بد لها أن تأتي..

كان حوريب يشعر بخشية من تلك المهمة الكبرى التي أوكلت إليه، وكان يهاب أن يفقد زمام أموره وألا يصير أهلًا لها، لكنه كان متيقنًا من شيء واحد وهو أن الملك الذي اختاره لفعل شيء ما، سيهبه القدرة على

تنفيذه،لأنه يعلم أنه يضع كل مخلوق من خلقه في مكانه المناسب ولا يحمله فوق طاقته، وأن هذا هو مكانه الذي لا يصلح غيره له، ولهذا فقد انتظر حوريب تلك اللحظة التي لم يكن يعلم تفاصيلها، لكنه كان يعلم أنها لحظة سُتغير من مسار وجوده على الأرض وستغير من تاريخ البشرية فيما بعد، لحظة سيظل يحمل مجدها ويعيش على ذكرها طويلًا في معجزة لن تتكرر لأنها أسطورة ربانية لا تحدث سوى مرة واحدة، معجزة ستجعل الناس يأتون إليه من كل حدبٍ وصوب، لرؤيته وللحصول على البركة استنادًا إلى تلك الذكرى، ليكون حوريب هو بوابة للعبور إلى أعماق الإله ووسيلة التطهر في واديه المقدس، وحينما أتى الميقات المحدد، أوحى الخالق لنبيه موسى بالترقي إليه عبر الجبل حتى يهبه الوصايا العشر، ترك موسى ما وراء البرية، وانطلق مدفوعًا بقبسٍ من نورٍ يفتن القلوب قبل الأبصار، تحمّل مشقة أكثر من تلك التي تحملناها، ومكث بالأعلى مدة أطول من تلك التي سنمكثها، ليتلقى وصايا ربه ليشّرعها بين قومه حتى لا يتخذون إلهًا غير الواحد الأحد، ولا يصنعوا تمثالًا منحوتًا أو يسجدوا له، ولا يحلفوا باسم الله باطلًا، وأن يقدسوا يوم السبت،وأن يكرموا آباءهم وأمهاتهم حتى يطيل الله في أعمارهم، وألا يقتلوا أو يسرقوا أو يزنوا أو يشهدوا زورًا أو يشتهوا شيئًا محرمًا من بيت قريب لهم.

كانت رحلة الصعود في ذلك الحين أصعب بكثير من رحلتنا يا هالي فالطريق الذي استوحشتهِ كان معك فيه غيركِ بينما موسى كان وحده مدفوعًا بشغفه وبنداء داخلي لا يعلَم كنهه، غاب سيدنا موسى أربعين يومًا وليلة حتى ظن قومه أنه لن يعود إليهم مرة أخرى، ولكنهم لم يعلموا

أن المهام الكبرى التي يُكتب لها الخلود لا تتم في يوم وليلة بل تكون مصاعب تحقيقها أكبر منها، فالوصول إلى الغايات العظيمة لا يكون إلا بفعل المحال.

فهمت حينما نضجت أن بنفسج كانت ترغب في أن تُعلمني قيمة الصعود إلي القمة والتي تتطلب الكثير من الجلد والصبر، وأن القمة قبل أن تكون مكانًا فهي مكانة لا يترقى إليها كل البشر، وأن من يبلغها لن يحافظ عليها إلا بالبذلِ لكي يكون أهلًا لها، وأن لذة الوصول تذيب كل الصعاب التي قد يلاقيها الإنسان في طريقه، وأن اللحظة التي يتحول في الألم لمتعة خالصة تستحق أن يبذل المرء من أجلها عمرًا بأكمله.

لكن لم يكن كل ما أدركته لحظة الصعود في ذلك الوقت كافيًا بالنسبة إليّ،واستمرت حالة التذمر الشديدة التي اعترتني- بسبب صعوبة الرحلة- مُلازمة لي، ولكن بنفسج رأت أن ما فهمته وقتها كافيًا بالنسبة لها، وقد برهنت لي سنين العمر بعد ذلك أن بنفسج كانت تدربني على صعود هذا الجبل معها؛ لكي أتمكن من صعود الجبل الآخر، وأنها ربما كانت تعلم أن هذا الجبل سأصعده في رحلة أخرى لن تكون هي فيها معي وأن تلك الرحلة ستشكل وعي حياتي، ومستقبلي الآتِي، بل إنها ستنقذني من ظلمات جب عميق كاد أن يبتلعني، ربما كانت بنفسج تعلم أكثر مما أعلم لأنها على دراية بأن الأيام سوف تكشف لي عن كل شيء تباعًا، ربما!!

***

6

حكاية العشق الخامسة

" ليه يا بنفسج بتبهج وأنت زهر حزين، والعين تتابعك وطبعك محتشم ورزين، ملفوف وزاهي، يا ساهي، لم تبوح العين، بكلمة منك كأنك سر بين أتنين، حسنك بكونك، بلونك، تبهج المقهور، واللي يزوره سميره في الظلام مستور".

كانت تلك الطقطوقة من أكثر الطقطوقات قربًا إلى بنفسج، ولم تكن تمل من الاستماع إليها قط، ربما كانت كلماتها هي آلة الزمن السحرية التي تُعيدها لأيام الحنين إلى الماض المجهول الذي لا تذكر بنفسج الكثير عنه، وما إن تدير أسطوانة الطقطوقة على الجرامفون العتيق الذي تملكه، حتى تُطلق تنهيدة حارة وبائسة وهي تخبرني لمرات لا أتذكر عددها أن تلك الطقطوقة هي السبب في تسمية والدها لها بهذا الاسم، لأنها كانت الأثيرة إلى قلبه، فأراد أن يخلدها فيها.

كنت أشعر أن بنفسج حينما تستمع إلى تلك الطقطوقة تذهب إلى عالم بعيد، تستعيد فيه ذكريات فائتة لم تعد تمت إلى عالمنا الحالي بصلة، كان صوت صالح عبد الحي يشبه صوت مُحب قادم من الماضي ليثير بداخلها صورًا باهتة لأيام أنقضت دون أن تتأهب لرحيلها، وكنت أشعر أن تلك الطقطوقة قد غُنيت خصيصًا من أجلها، وأنها تحمل لمحة منها، فأبسط ما يمكنني وصف بنفسج به هو أنها زهر حزين، وأنها تحمل من الأسرار والغموض ما لم تبح به لمخلوق..

كنت كلما نظرت إلى بنفسج أتذكر بياض الثلج صديقتي الأثيرة من عالم الأميرات، ربما لأنها تتشابه معها في لون وجهها، وفي حُمرة كرزة شفتيها، غير أن شعرها الناعم والمتموج كان ينسدل حتى أسفل ظهرها، دون أن ينجح الشيب في أن ينال منه إلا بعض النسائل الفضية والتي تناثرت بين سواد خصلاته الكثيفة لتكسبها وقارًا فوق وقارها.

كنتُ أسقي بعض الورود في شرفة المنزل الذي أحيا فيه معها دون ثالث، بينما أتأمل وجهها الشارد والذي يثير حزنه البادي بداخلي الكثير من المشاعر المتناقضة، حتى هالتني إحدى الورود–التي تفتحت بتلاتها وأينع تويجها– بحسنها، لم أتمالك نفسي من فرط روعتها ونزعتها سريعًا من أصيصها لكي أنعم برائحتها في حجرتي، لكن بنفسج حينما رأتني أفعل ذلك اقتربت مني وقالت بصوت خفيض:

– إذا أردتِ يا فتاتي الحفاظ على تلك الوردة الجميلة لفترة أطول فكل ما عليكِ فعله هو تجفيفها ما دمتِ لم تتركيها تنعم هانئة بجمالها.

كنت أرغب في الحفاظ على تلك الوردة الصابحة لأطول وقت ممكن وكان عليّ أن أختار بين رغبتي في التمتع بها وبرونقها والذي سيستمر لمدة قصيرة لأنها سرعان ما ستذبل بعد قطفها، وبين تضحيتي بها رغم حبي لها، لأقوم بتجفيفها لتفقد الوردة جزءًا من بهائها ولونها وذلك في سبيل أن أحافظ عليها لمدة أطول..

أدركت أن الموت يطول الأشياء مهما تطُل أعمارها فقلت لبنفسج:

– ما لون الموت يا جدة هل هو أسود أم أزرق؟

فقالت لي:

– الموت أحمق لا لون له، لكن رائحته تشمها أنوف الراحلين ووجيعته تؤلم قلوب العاشقين..

وحينما كبرت، علمت أن الموت ربما يكون هو الحقيقة الوحيدة على الأرض والتي لا يعترف بها المتجبر بسلطانه، ولا الفخور بماله، ولا المختال بجماله، فالسلطان زائل وإن طال أجله، والمال ذاهب وإن طال أثره، والجمال ذابل وإن فتن من حوله، ولذلك فقد قررت وقتها أن أختار علاقة طويلة الأمد بيني وبين الوردة، ولم أجد إلا الانصياع لنصيحة بنفسج، تناولت أحد كتبها الموضوعة على مكتبها، فهمت بنفسج اختياري والتقطت الوردة مني ووضعتها بين طيات الكتاب برفق، ثم أغلقته عليها جيدًا.

وقالت:

- رغم أن شكلها قد يتغير قليلًا لكنها ستظل نفس الوردة التي أحببتها والتي أعجبتكِ وستعيش لفترة أطول قد تمتد لسنوات ما دمتِ تحافظين عليها، وما دمتِ ترين فيها جوهر الوردة التي أحببتها ذات صباح حينما كانت بكامل بهائها، وربما تُذكركِ بي ذات يوم حينما يحول بيننا اللقاء.

أدركت بمضي الأيام أن الحياة مكونة من عدة اختيارات، وأن لكل اختيار ثمنًا يجب أن نفكر في دفعه قبل أن نُقدم على أخذه، وهناك بعض الاختيارات الحياتية التي لا نتمكن أن نعدل عنها بمجرد أخذها، ولذلك يجب أن نتخير ما نستطيع أن نتحمل مغبته دون أن يساورنا الندم أو الألم على ما كسبته أيدينا، لكنني وقتها سألت نفسي: لماذا أحب الورد؟ وهل أحب الورد لشكله أم لرائحته أم لسبب مجهول لا أعلمه؟ ولماذا يُشعرني براحة كبيرة تجعلني لا أمل من النظر إليه أبدًا؟

كنت في سن تعجز عن تفسير ماهية الحب وما يُحدثه من أثر في نفوسنا، ولكن القدر فسر لي كل شيء، وحمل لي الكثير من الإجابات، وكأنني خُلقت لأتساءل، وكأن القدر خُلق ليُجيب.

***

7

على الرغم من حكايات بنفسج التي كانت تأخذني إلى عوالم بعيدة فإنها لم تنجح قط في أن تُنسيني قصتي مع جميلة وفؤاد، فقد كنت لا أجد منطقًا واضحًا يستطيع أن يُفسر لي سبب رحيلهما المبهم من حياتي بعد ولادتي بمدة قصيرة ليتركاني مع جدتي لأبي في أكثر وقت كنت بحاجة فيه إليهما دون أن يأخذاني معهما أو يساهما في تكوين عالمي الخاص بذكرياته وحكاياته، ربما كانت الحياة تتشابه لديهما مع تلك المعادلات الرياضية التي يكون فيها نتاج إضافة الواحد إلى واحد آخر مثله يساوي اثنين؛ ولذلك لم يتفهما ما قد يفعله هذا الرحيل الموجع بي وبطفولتي، فحينما تفتحت براعمي للحياة وبدأت أنظر لكل ما حولي، لم أجدهما معي، كنت أود أن أشعر بأنني كائن محبوب ومقبول من أقرب الناس إليه، من والديه اللذين كانا سببًا في وجوده بهذا العالم، كنت أتمنى أن أشعر بأنهما يقفان بجواري وأنهما لن يفلتا يديّ مهما يحدث وسيقدمان لي الدعم الكافي إذا ما احتجت إليه مثل أي ابنة طبيعية يشعر والداها تجاهها بمسئولية الرعاية والاهتمام والمحبة، لقد حُرمت تلك الفترة التي تتكون فيها ذكريات المرء

وحكاياته مع والديه، فتُغزل فيها شخصيته على نول الأيام التي يعيشها معهما، وبفعل الصفات التي يجدها تُشبه صفاقما؛ لأنه يحمل منهما أكثر مما يحمل من نفسه، فهو كله نتاج امتزاجهما ذات ليلة عشق، لقد حُرمت الفترة التي يَقلد فيها الصبي والده وهو يرتدي ملابسه ويحاكي مشيته، وتقلد فيها الفتاة أمها وهي تضع أحمر شفاهها وترتدي حذاءها ذا الكعب العالي لكي تسمع دقاته المثيرة على الأرض تشبهًا بكل أنثى ناضجة لها الحق في ارتداء مثل هذا الحذاء، ولكنها لا ترى من بين كل النساء إلا أنثى وحيدة ومكتملة، وهي أمها، كل تلك الأمور وأكثر قرأت عنها وشاهدها في الأفلام بل رأيتها تحدث بين رفيقات الصف وذويهن دون أن يكون لي منها نصيب، لعنة الله على كل غياب آثم يحرم الحبيب من حبيبه، لعنة الله على الأسباب الواهية والمسافات البعيدة التي تحيل اللقاء وتحول الشوق لجفاء، والتي تحرم فتاة وحيدة مثلي من والديها، لتصبح لطيمة رغم أنهما على قيد الحياة.

لذلك قضيت ردحًا من حياتي مع بنفسج والتي حلت مكان فؤاد وجميلة ورغم حبي الشديد لها فإنها لم تشغل مكانهما أو تعوضني عن غيابهما، ربتني جدتي ورعتني وقصت عليَّ حكايات ما قبل النوم التي تقصصها كل أم على مسامع صغيرها وهي في فراش نومها استعدادًا للذهاب إلى دنيا الأحلام البيضاء، وكانت رؤيتي لمن أنجباني متقطعة وفي أوقات غير منتظمة، وغالبًا ما تكون مغموسة بالكثير من الحلوى والملابس والهدايا والقليل من الكلام غير الكافي لإزالة أسوار الفتور بيننا أو لإذابة

الجليد الذي غلّف قلبي بفعل غيابهما، كنت أشعر أن فؤاد والدي لأن شهادة ميلادي تقول ذلك، تضع اسمه بجوار اسمي وتنسبني إليه دون وجه حق، ليصير أبًا مع إيقاف التنفيذ، وأن جميلة والدتي لأن نفس شهادة الميلاد تقر بتلك الحقيقة مثلها مثل الكثير من الحقائق التي يقرها البعض دون أن نتمكن من التأكد من صحتها بأنفسنا، كان قلبي يأبى أن يقر بهذا الأمر ويتجه بكل مشاعره وحبه لبنفسج،وحينما كنت أتخيل في بعض اللحظات السنتيمنتال أنني أتزوج وأُرزق بابنة جميلة، أقسم أنني لن أفعل بها مثلما ما فعلاه بي، فأنا لن أترك ابنتي لأي سبب كان وأسافر، لن أدعها تكبر بدوني، ولن أتركها تؤدي فروضها المترلية دون أن أساعدها فيها، لن أدعها تحتفل بانتقالها السنوي من صف لآخر بدون أن أكون بجوارها، لن أغيب عنها وأعود لأجد شعرها وقد نما كثيرًا عن المرة السابقة التي رأيتها فيها وأنها قد صارت آنسة جميلة تشارف أن تقاربني في الطول دون أن ألمس ما بها تغيرات بنفسي، ودون أن أشاركها لحظاتها الحميمية والحرجة التي تحتاج فيها أن تفهم طبيعة النساء والتغيرات التي تطرأ عليهن حينما يخرطهن خراط البنات ليستبدل جسد الطفلة بجسد الأنثى بما فيها من فورة وقوة وجاذبية طاغية. لن أكتفي بالتحدث معها عبر شاشة حاسوب أو هاتف نقال خشية أن يتغير شكلها ذات يوم فلا أعرفها إذا مرت علينا عدة أشهر دون أن أراها ولو عن بعد.

قد يكون لكل منا زاويته الخاصةِ التي يُقيّم بها حساباته فيتصرف وفقًا لما يعتقد أنه الأفضل لنفسه ولمن هو مسئول عنهم،ووفقًا لما اعتقده والداي فقد ظنا أنهما قد فعلا الأفضل لي، حينما تركاني مع جدتي وسافرا للعمل في ولاية مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية..

لكنهما حينما تركاني لم يعلما أن الغربة التي أصبحت أشعر بها حينما نجلس ثلاثتنا فلا نجد ما نقوله بعد عبارات التحية المعتادة والكلمات التقليدية وأن الجليد الذي يأبى أن يذوب مهما تكن حرارة أشواقهما نحوي سببه عدم قدرتي على تجاوز ما فعلاه بي..

أذكر أيام ذهابي الأولى للمدرسة حينما كانت تتسلل إلي أغنية "يا صباح الخير ياللي معانا، ياللي معانا، الكروان غنى وصحانا، وصحانا" لأم كلثوم من الإذاعة لتعلن عن استيقاظ جدتي من سباتها لأفيق من نومي على صوت برنامج المنوعات بصبح عليك، أتناول كوبًا من الحليب على صوت محمد ثروت الذي يصدح بمقدمة برنامج أبواب السماء "يا رب الملك لك لك"، أنتهي من ارتداء ملابسي على صوت إيناس جوهر وهي تقول "غمض عينيك وامشي بخفة ودلع الدنيا هي الشابة وأنت الجدع، تشوف رشاقة خطوتك تعبدك، لكن إنت لو بصيت لرجليك تقع، وعجبي".

ما زالت ذكريات جيل الثمانينيات الجميلة لا تنمحي من ذاكرتي مهما تمر عليها السنون والتي لم يشاركني فيها والديّ مثلما لم يشاركاني أيًا من هواياتي، لم يكن لديّ إلا بنفسج، التي لم يكن لديها أي أحد هي الأخرى

فلا أذكر أن هناك فردًا من عائلتنا أو قريبًا لنا قد زارنا من قبل أو أن لدى بنفسج صديقة تزورنا ونزورها كما تفعل سائر النساء، بل إنها لم تكن تسعى لتكوين صداقات أو علاقات من أي نوع، كما أن تنقلنا الدائم من منزل لآخر لم يدع لنا الفرصة لنرتبط بأشخاص أو منازل، كانت بنفسج مصابة بلعنة الوجوه والأماكن وكأنها تهرب من شبح يبحث عنها، تركض بعيدًا وتحملني معها دون أن أملك حق الاعتراض، وحينما كنت أسألها عن السر في حياة العزلة التي فرضتها علينا، كان الصمت هو الإجابة الوحيدة التي ترد على بها، تتشاغل بأي شيء أو تدير دفة الحديث لأي جهة مجدفة بعيدًا عن سؤالي، ولم يكن هذا الأمر يعنيني في سنوات عمري الصغيرة وكنت سرعان ما أتناسى أسئلتي أو أؤجلها أمام ضمة منها لي أو قبلة تضعها فوق جبيني بعد أن تهديني قطعة من الحلوى، ولكنني حينما كبرت لم يعد حنانها أو حلواها كافيين أو مرضيين، أسئلتي تزداد إلحاحًا، وصمتها يزداد غموضًا، ويقيني بأن هناك سرًا لا تبوح لي به يتعاظم، كم من المرات شعرت أن الكلمات توشك على التدفق من فمها لكنها تعود للصمت من جديد، تُجيب على أي سؤال أطرحه عليها إلا تلك الأسئلة التي تتعلق برحيل فؤاد وجميلة، وبتنقلنا الدائم وبعدم انخراطنا بمن حولنا أو تكويننا علاقات طبيعية معهم، كانت كل تلك الأمور تُشكل علامات استفهام كبيرة تحيط بعقلي وقلبي دون أن أجد لها جواب

ثم اكتشفت أن هناك جانب آخر مظلم من حياة بنفسج تُسدل فوقه ستارًا غامقًا ولا تريد أن يعرفه أحد سواها وهو قصتها مع جدي ميرزا تلك القصة التي لا أعلم عنها أكثر مما أخبرتني هي به وهي أنها تزوجت

جدي حينما كانت في الهند في رحلة قامت بها في شبابها عقب انتهاء دراستها بالفلسفة، وحينما التقت به سرعان ما ألقى كيوبيد سهمًا من سهام العشق الذي لم يصلح معه إلا الزواج رغم عدم ترحيب عائلة جدي ميرزا به.

لم تُمنح السعادة للزوجين فترة طويلة، فقد مات جدي ميرزا قبل مولد فؤاد لتعود بنفسج إلى مصر مرة أخرى وتنعزل عن العالم بطريقة تدعو إلى الدهشة وتكرس ما تبقى من أيامها لفؤاد ثم لي.

لم أكن أعرف تفاصيل زيجة جدتي الوحيدة ولا مكان أسرة ميرزا ولا أعلم السبب في انقطاع علاقة بنفسج بهم عقب عودتها لمصر، لم أر فردًا منهم طوال حياتي ولا حدثني فؤاد عن أحد من عائلة والده، وكانت قصة بنفسج وميرزا وامتناعها عن الاسترسال في الحديث عنها يزيدها غموضا بالنسبة لي، وحينما لا أجد الجواب المُقنع لأسئلتي الكثيرة، ألجأ للكتابة، فقد كانت وسيلة التعبير الوحيدة التي أتحرر فيها من كل القيود، جاء حبي للكتابة في سن مبكرة بعد فترة من قراءات بنفسج لي اليومية للعديد من القصص والحكايات كما أنها كانت تهديني كتابًا أسبوعيًّا وتقرأ لي حكاية ما قبل النوم يوميًّا من مكتبتها التي كانت تتنقل معنا في كل مكان نذهب إليه،كانت بنفسج تتناقش معي فيما أقرؤه وتعينني على فهم ما يصعب على إدراكه من الكتب وحينما ازداد عدد الكتب التي أقرؤها بدأت رغبة ملحة تتكون بداخلي في أن أكتب وأن أعبر عما بداخلي، كنت أدون الكثير من الخيالات التي تراودني فما الخيال إلا حقيقة تغيرت معالمها لتصير لا معقول في زمن المعقول، فتقبلها عقولنا على أنها أمور خارقة للطبيعة

ومخالفة لما اعتدناه، في حين أن بداية النبتة كانت رؤية غير اعتيادية للأمور الاعتيادية، وكانت بنفسج تتحمل حكاياتي البسيطة وغير المنطقية وتقترح علي تراكيب لغوية وأفكارًا جديدة، ولكنني كنت عنيدة في ذلك الوقت، ولا أقنع بتعديل فكرة أو بإضافة سطر إلى ما كتبته،وحينما بدأت في إدراك ما حولي كنت أعبر عن استيائي الشديد من فؤاد وجميلة على الورق؛ لأفرغ شحنة الغضب المكتومة بداخلي في كشكولي الخاص، أتساءل عن سبب وحدتي الشديدة في هذا العالم، وعن غربتنا عن بقية البشر، لماذا تظل حياتنا ناقصة من وجودهم؟ لماذا لا أنعم بصداقات عميقة مع زميلات المدرسة؟ لماذا لا أقبل دعواهن المتكررة لي بحضور أعياد ميلادهن أو مناسباهن المختلفة التي توقفن عن دعوتي إليها حينما وجدنني لا ألبيها؟

علمت فيما بعد أن بنفسج كانت تحرص على قراءة خواطري الثائرة، لكنها لم تخبرني قط أنها قرأت ما كتبت، تجيب عن حيرتي وتساؤلاتي بطريقة غير مباشرة من وقت للآخر، بطرق أكثر إرباكًا لسنوات عمري القليلة ولخبرتي القصيرة في هذا العالم، تقول لي دومًا: أنتِ أصغر من أن تعرفي الحقيقة! لست صغيرة يا جدتي لكي تخفي عني أمورًا مهمة خشية من عدم فهمي لها، لست كما أبدو لكِ، لقد سبقتُ سني بأعوام، وأصبحت أدرك الكثير، وهذا ما يجب عليكِ أن تعلميه..

كانت بنفسج تعلم أنني غاضبة منها حينما أناديها ب "جدتي"، وقد كنت أناديها بهذا اللقب في تلك الأوقات التي تتهرب من أن تجيبني فيها على أسئلتي، تعلم أن عقلي غير الواعِي يعاقبها بطريقة لا إرادية وينقلها

من منزلة الصديقة بنفسج ليضعها في منزلة الجدة بنفسج التي يوجد بيني وبينها العديد من الحواجز، أرفض أن أظل جاهلة لما يدور حولي وحينما كنت أحاصرها بالأسئلة وترفض أن تجيبني لم أكن أرى منها إلا تلك الجدة التي ترى حفيدتها أصغر من أن تدرك وأقل من أن تعرف، لكن جدتي لا تعرف كم أنا عنيدة وأنني لن أكف عن التساؤل، وسوف أكشف الحقيقة كاملة ذات يوم مهما يطُل صمتها أو محاولاتها لتضليلي.

***

8

- مازلتِ تصرين على نفس التساؤل؟

- نعم يا بنفسج؟ ما شكله؟

- ليس كمثله شيء..

- هل يشبهنا؟

- ليس كمثله شيء..

- هل يختلف عنا؟

- ليس كمثله شيء..

- هل هو مارد عملاق حتى يتسنى له أن يخلق كل شيء من أصغر المخلوقات حتى أكبرها؟

-ليس كمثله شيء..

نظرت لبنفسج بغيظ حقيقي وقلت لها:

- يجب أن تخبريني؛ لأنني يجب أن أفهم.

عدّلت بنفسج من وضع نظارة القراءة الخاصة بها وقالت لي:

- أخدعكِ إذا قلت لكِ إنني أعرف، فالخالق لم يفصح لنا عن شكله ولذلك لا نمتلك تصورًا واضحًا عنه ولكن كل ما نعلمه أنه ليس كمثله شيء فمن يستطيع أن يخلق كل هذا الملكوت بما نعلم عنه وما لا نعلم، من يخلق الأرض ومن عليها وما فوقها وما تحتها وما حولها يجب أن يكون ليس كمثله شيء.

- ولكنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يُفضل الإله أن يحجب وجوده المادي عن البشر ثم يطلب منهم أن يعبدوه كأنهم يرونه وأن يؤمنوا به بينما لا يعلمون شكله، بل إنهم قد يتشككون في حقيقة وجوده لأنهم لا يرونه.

- ربما لأن الكيفية التي خُلق بها البشر لن تستطيع أن تستوعب الكيفية التي يوجد عليها الإله.

- ولماذا لم نُخلق بالكيفية التي تتمكن من استيعاب كينونته؟

- أعدُكِ أن يحمل لكِ المستقبل القريب إجابة عن كل تساؤلاتك، قد لا أكون أنا من يجيبكِ عنها ولكن الأهم هو أن تجدي الجواب الشافي، ولكن كل ما أستطيع أن أقوله لكِ هو أن أي تصور يرد بذهنك عن شكل الإله فهو أبعد ما يكون عنه، لأن الله ليس كمثله شيء، هكذا وصف ذاته المقدسة وقال لنا عنها في كتابه.

انصرفت بنفسج لتعد لنا العشاء وتركتني حائرة في تصوراتي، الكثير من الأسئلة تشغل فكري دون أن أجد بداخلي الإجابة المناسبة عنها، وحينما سألت معلم التربية الدينية في مدرستنا عنها، تجاهل ما قلته وعاملني على أنني مجنونة، حتى علمت فيما بعد أن السؤال عن شكل الإله من الأسئلة المحرمة في مجتمعنا، بل إنها من الأمور الشائكة وغير المسموحة بالطرح، ومن يفكر في أن يتحدث عنها على الملأ سوف تصيبه لعنة البشر وتشككاتهم من الدين الذي يعتنقه، فقد ينعته البعض بالملحد وقد يصنفه البعض على أنه لا ديني، بينما البعض قد يستبيح قتله لأنه يراه كافرًا لأن الإيمان الحقيقي من وجهة نظره هو ألا يُعمل عقله وألا يسأل عن أشياء أن تُبد له تَسُؤْهُ، ولن يعتقد أحد أن هذا السؤال قد يندرج تحت باب العبادة، وأن من يتفكر يصل للحقيقة ويزداد يقينه بها أو أن التفكر والتأمل قد يكون عبادة روحية،وأن استخدام العقل الذي منحه الله البشر دون غيرهم من عباده ضرورة حتمية، وقد التقيت طوال حياتي بعدد كبير من البشر الذين يخشون من طرح تلك الأسئلة بينهم وبين أنفسهم حتى، بل إنهم قد يتهربون منها إذا ما خطرت ببالهم، وعلى الرغم من أنهم قد يفكرون فيها من وقت للآخر فإنهم سرعان ما يخمدون لهيبها بداخلهم كلما اشتعلت جذوتها خشية أن تحرقهم بدلًا من أن تنير لهم طريقهم، لكنهم لا يعلمون أن النار هي النار، هناك من يستضيء بها وهناك من يتركها لتحرقه، الأهم هو كيف ستُسخرها؟ هل ستدعها تنير لك الطريق أم ستتركها لتلتهمك داخلها؟ ربما لن أجد الإجابة الآن مثلما أخبرتني بنفسج، لكنني أثق أنني سأجدها ذات يوم ما دمت أبحث، ولا أعلم ماذا أصاب ابنة جارتنا سوسن

تلك الفتاة اللطيفة ذات الشعر الأسمر والعينين العسليّتن، والتي تقاربني في العمر حينما تناقشت معها في هذا الأمر، فهي دون أن تدري قادتني إلى اكتشاف آخر بالمصادفة، فحينما أنهيتُ حديثي معها، كان ردها بدلًا من أن تحاججني بالمنطق أخبرتني أن ما أفكر فيه طبيعي للغاية بالنسبة لفتاة فقدت والديها واضطرت أن تعيش مع عمتها، وأنها لن تتعجب من خوض فتاة مثلي لتلك القضايا المحرمة، فلا بد أن عقلي قد أصابته لوثة أذهبت به بعد تلك التجربة القاسية التي مررت بها، وأن كل من هم مثلي يفكرون في تلك الأمور لكنهم يعودون إلى رشدهم في وقت لاحق، ألجمت الدهشة لساني الذي كان يصول ويجول منذ قليل في ساحة الخطابة، لم أجد ردًّا مناسبًا عليها، وعلمت منها أن بنفسج هي من أخبرت جارتنا أم سوسن بتلك الأكذوبة، قصة جديدة من قصص بنفسج، غموض آخر تحجبنا به عن الناس وتُباعد به بيننا،تركتها في عجلة من أمري وذهبت لأواجهها بما قيل لي، وما راعني هو أنها لم تنفِ كذبتها، بل اعترفت بها وبأنها تقولها للجميع؛ لأنها ترى فيها الوسيلة المثلى لحمايتي.

حمايتي؟ ممَّ؟ وبأي حق أكون آخر من تعلم ما تقوله وما تخبر الناس به؟ وهل تظن أنني أستطيع أن أثق بها أو أتحمل المزيد من الأكاذيب أو الغموض بعد ذلك؟ إلى متى سأتحمل تلك الطريقة؟ أليست تلك حياتي التي بين يديها؟ أليس من حقي أن أعلم ماذا يُحاك من خلفي؟ ألا أملك الحق في أن أعرف الحقيقة؟ كانت ثورتي أكبر من أن تنتهي بصمتها تلك المرة؟ ولأول مرة ترجوني أن أتمهل، لكنني لم أفعل، احتدم النقاش بيننا، تراجعت

الصداقة التي تجمعنا، وظهر أول خيط من عداوة غير معلنة بيني وبينها، وكأن حاجزًا صلبًا قد قام بيننا، نسيت في تلك اللحظة أنها من رعتني وأنها من قامت بكل شئوني، لم أعد أر منها سوى سببًا مباشرًا في وحدتي وفي نمط حياه غريب لا أقبل به ولا أستطيع تحمله أو الاستمرار في العيش من خلاله، كان الأمر أكبر من احتمالي، تشاجرت معها، علا صوتي لأول مرة، تركت المنزل دون إذنٍ منها لأعود بعدها دون أن أتحدث معها لأسبوع كامل لم أغادر فيه حجرتي قط، ولم أتناول من الطعام سوى اليسير الذي يقيم أودي، لم تكف هي طوال ذلك الأسبوع عن التوسل إليّ لكي أفتح الباب الموصد بيني وبينها وأن أصبر قليلًا؛ لأنه في الوقت المناسب سوف أعرف بنفسي كل شيء، كنت مائة بالمائة وحيدة في ذلك الوقت، لم يكن مخلوق واحد أبثه شكواي، لا أهل لا أصدقاء، لا شيء سوى الكتابة، قضيت أيامًا أكتب وأمزق ما أكتبه، حتى لم أعد أجد ما أكتبه، فهدأت.

وحينما فتحت الباب، كان أول ما قالته لي إني سأعلم كل شيء حينما يئين الأوان، كانت تعلم أنني أتألم ورغم هذا ترى أن ذلك الألم خير لي، كانت تراني أحيا وسط دوامة مقيتة من الحيرة فتجزم بأن ذلك هو الأفضل، ولا أعلم ما هو السبب الذي يُجيز لها أن تتركني فريسة للألم والحزن والأوهام، حاولت ألا أجعل ما حدث بيننا يؤثر في علاقتنا، لكن الكثير من الحساسية بدأت في النشوء بيننا منذ ذلك الوقت ويبدو أن الكثير من الأمور البغيضة تحدث بيننا وبين أقرب البشر إلينا دون أن نملك لها حلًا، فننسى المحبة، وننسى كل ما كان، ويبدو أن هذا هو ما حدث بيني وبين جدتي.

9

"وكان جل ما تمنيته في تلك الليلة هو شارع نصف مضيء، نسير فيه ولا نصل لنهايته، ونسمة رقيقة تداعب قلبي وقلبك، وحديث متصل لا ينقطع بيني وبينك، وورود لا تذبل حتى إذا قطفتها يد، وحب لا نعرف له نهاية، هل كانت بداية الحب العظيم في عالم آخر، تسكن فيه أرواحنا داخل أجساد أخرى لتؤدي أدورًا أخرى لكنها تظل على عشقها، وتتذكر كل ما كان، حتى إذا ما تلاقت ائتلفت وما اختلفت، وتقابلت وما تنافرت، وأحبت وما كرهت، فالروح العاشقة مخلوقة من نور يحيط بها في كل عالم تذهب إليه".

لم تكن كتاباتي تتسم بالشاعرية فيما قبل،لكنني حينما التقيت به، تبدل كل شيء، هذا ما فعله بي الحب الأول، لحن داخلي عذب أسمعه يعزف بداخلي طوال الوقت، خلعت النظارة السوداء واستبدلتها بأخرى وردية، أرى نفس الأشياء بمنظور أجمل رغم أنها لم تتغير، أنظر للمرآة وأبتسم لوجهي الذي لازمني لسنوات دون أن أنتبه إليه، أشعر أنني خفيفة

كالفراشة، مشكلاتي بسيطة وما من شيء إلا وله حل، نسيت وحدتي وآلامي في خفقة قلب، وما كنت أظن أن هناك شيئًا يمكن أن يُنسيني إياهم، حتى خواطري التي أكتبها كل مساء صارت أكثر رقة، تنساب المشاعر مع حبر قلمي على الورق في تناغم.

كان آدم هو أحد الزملاء الذين التقيتهم في أولى سنوات دراستي الجامعية، بداية تقليدية تحدث بين مئات الطلبة كل عام، إلا أن ما يميزها هو أن شعوري نحوه لم يكن تقليديًّا بالمرة، وفي أول يوم أمسك آدم بيدي شعرت أن الحزن قد فارقني للأبد وأنه لن يعود مرة أخرى، لمسته كنت أحلم بها منذ أن بدأت أتخيل فارس أحلامي يمتطي حصانًا أشهب، ويأتي ليحطم كل القيود، ثم يحملني إلى عالم صافٍ أودع فيه الغموض والأسئلة التي لا تجد من يجيب عليها، لمسة واحدة منه كافية لتحول ليلي إلى نهار، وقفاري إلى عمار، كنت كأي فتاة تحلم بالحب وتفتقد حنان الرجل الغائب عن مشهدها دائمًا، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل قلعة قلبي تسلم لأول طارق، كنت أرى أن شعوري فريد، لم يمر على الأرض من قبل، ولن يمر عليها من بعد، فإيفوريا العشق تخلق حالة من الشمق نحملها داخلنا ولا يصدقها غيرنا، وحينما أخبرت بنفسج عن سري الصغير، تبسمت وقالت:

– كل المحبين يتخيلون أن قصص الحب الفائتة بجوار قصتهم لم تكن، وأن كل المشاعر بجوار مشاعرهم لا توزن، وفي النهاية قليلون هم من يستمر حبهم للأبد.

– هل تعنين أن مقدار الألم في الحب يكون أكبر من مقدار السعادة؟

- لا صوت يُسمع للسعادة، غير أن صوت الألم يرتفع ويصل إلى عنان السماء، السعداء يعيشون، بينما التعساء يُسمع صوت أنينهم من على بعد أميال..

لم تُرحني كلمات بنفسج حينما حدثتها عن آدم، فهي لأول مرة لا ترفض علاقة قريبة بيني وبين أحد، وفي نفس الوقت لم تباركها، ولم تهتم بمعرفة المزيد عنها، تركتني للتجربة تترك بصماتها على قلبي، لم أسألها المزيد فقد كانت علاقتي بها غير مستقرة يسودها الغيوم، كنت فرحة بظهور آدم وبوجوده في حياتي الذي ألقى حجرًا في مياه حياتي الراكدة، حاجتي له ولعلاقة دافئة تذيب الثلوج التي تحيط قلبي كانت ماسة، رغبتي في رؤيته تتضاعف كل يوم، ونهمي للحديث معه لا يخفت، تعلقت به سريعًا وانغمست في نشوة العشق كل يوم أكثر عما قبله، صرت لا أحتمل ساعات غيابه، حكيت له كل ما عرفته عن نشأتي على قلة تفاصيلها، وأشركته في ما لا أعرفه من ألغاز أسعى لحلها، صرت في نهاية المطاف أهرب من ألمي إليه، هو أفيونتي التي أدمنتها ووجدت فيها لذة عظيمة تُنسيني كل شيء، حتى أنني لعنت ذلك الصباح الذي أخبرني فيه سفره للخارج لقضاء عطلة صيفية قصيرة مع أسرته، انهمرت دموعي غير مصدقة أنه سيبتعد عني، طلبت منه أن يبقى وأن يطلب منهم المغادرة من دونه، أخبرني أنه لن يتمكن من فعل ذلك لكنه سيعود قريبًا جدًا، قدم لي دعوة رومانسية لعشاء على ضوء الشموع في الليلة التي تسبق سفره، وافقت لأني وددت أن أملي عيني برؤياه، تهيأت لذلك اللقاء الذي سيعقبه الكثير من الغياب والشوق، ارتديت أجمل أثوابي، تركت شعري اللامع ينسدل فوق كتفيّ مثلما يحبه، وعند تل القمر كان هو هناك يتناول خيوطًا

فضية متناثرة من سماء تُنير بقمرٍ وحيدٍ مثل حالي إذا غاب، كانت هناك وردة حقيقية حمراء اللون تُزين الطاولة التي جلسنا عليها ترقد بجوار شمعة حزينة تحترق من أجل سعادتنا بينما تنساب موسيقا كلاسيكية رقيقة لأحدى أغنيات إديث بياف، لم يكن هناك أجمل من تلك اللحظة سوى اللحظة التي سيعود فيها ليضمني بقلبه، وليُشعرني بالأمان مرة أخرى

انتهينا من تناول الطعام، ثم طلب آدم من النادل قدحًا من القهوة، تبسم في وجهي وتمنى لو ناولته كفي الصغيرة ليطبع عليها قبلة يحلم بها دومًا، ثم أخبرني حينما قدم لي هدية صغيرة لكي تُذكرني به، إن كل هدايا الأرض لا تصلح لامرأة آتية من عالم غير عالمنا.

غمرتني دموعي وأنا أطلب منه أن ألقاه مرة أخرى في صباح اليوم الذي سيسافر فيه، وفي صباح الرحيل قررت ألا أكترث لأمر البشر من حولي والذين كانوا ينظرون إلينا، كأن المكان خال من أعينهم، وكطفلة صغيرة تعتقد أن ما من أحد سيراها إذا أغمضت عينيها بقوة أغمضت عيني حينما هللت روحي ببشارة وجه المتبسم، وألقيت نفسي بين ذراعيه قبلت ما بين خده الأيمن وفمه، رد على شوقي بشوق أكبر منه وتناول حبات الكرز التي أغمر بها وجهه الحبيب، وفي عالم غير فانٍ لا يوجد فيه إلا آخر رجل وامرأة نجيا بالحب، كان هذا الرجل هو حبيبي، وكانت تلك المرأة هي نفس الفتاة الصغيرة التي لم تكن تكترث بالبشر حينما أدركت أن قبلة على وجه رجل عشقته وعناق منه يساوي لديها كل زهور الأرض..

رحل آدم للمرة الأولى وتركني للوحدة من جديد، أكره السفر لأنه يُذكرني بكل المعاني التي أمقتها، السفر بالنسبة لي يعني رحيل الأحبة، وغياب المحبة، يعني ليالي من شوق لا ينطفئ، وأيامًا متتالية تتشابه في غياب الوجوه التي نعشقها عنا، ومهما تساعد وسائل التكنولوجيا على استعادة صوت أو صورة من نحب، إلا أن نبض قلب الحبيب، ولمسة يده، لا يعوضها مئات التطبيقات الحديثة، فنظل كما نحن على حالنا، في انتظار أن يعود من غاب قبل أن نجن بلوثة الشوق والحنين.

ودعت آدم بكل الشوق ربما أن هناك شيئًا بداخلي كان يعلم أنها المرة الأخيرة التي سأراه فيها وأن القدر سيكون له رأي آخر في قصتي معه، رأي ربما كانت تعمله بنفسج هي الأخرى، لكنها فضلت أن تحتفظ به لنفسها.

***

10

كان من عادة فؤاد أن يرسل إلى بنفسج جوابًا واحدًا في مطلع كل شهر، يحكي لها فيه كل ما يحدث له ولجميلة طوال الشهر الفائت وعلى الرغم من تطور وسائل التواصل فيما بعد والتي أصبحت تُيسر على الجميع إرسال وتلقي هذا النوع من الرسائل عبر البريد الإلكتروني، فإن بنفسج كانت تحرص كل الحرص على هذا الجواب المكتوب بخط يد ابنها، وكانت تطلب منه ألا ينقطع عن إرساله لها أبدًا لا سيما أن الفترة التي سافر فيها إلى مينيسوتا لم يكن هناك هذا الدفق المهول من وسائل التواصل الاجتماعي والتي ظهرت بعد سنوات لكي تُيسر على البشر سبل اللقاء والمراسلة لتذيب المسافات خلال ثوان، اعتاد فؤاد أن يرسل لبنفسج دائمًا ذلك الجواب الشهري، ولم يقطع تلك العادة التي تحبها حتى بعد غزو التكنولوجيا لحياتنا في المستقبل،كان الجواب يصلها دائمًا من عنوان صديق فؤاد الوحيد السيد جاستين والذي أشار عليه بالعمل هناك بل دبر له وظيفة مناسبة وشجعه على اتخاذ قرار السفر، خط فؤاد بالنسبة لبنفسج هو قطعة متجددة منه يهديها إليها رغم البعد وإن لم تملك أن تراه وجهًا

لوجه أو تتحسس وجهه بأناملها وتتلمس غزو الشيب لشعره الحريري، تستطيع أن تتلمس خطه، وتتشارك معه أضعف إيمانه عبر جزء منه يستطيع أن يهديه إليها بين الفينة والأخرى، من خلال خطه الذي تفتقده مثلما تفتقد وجوده، كانت بنفسج تحرص على قراءة الجواب بنفسها بصوتٍ عالٍ في حضوري كي أستمع معها لفحواه، وما إن يجلبه لها ساعي البريد حتى تتسلمه بلهفة حقيقية ثم تُلقي على الجواب نظرة سريعة في البداية لكي تتأكد من خلوه من آية أخبار مزعجة، ثم تبدأ في قراءته، كانت لهفة بنفسج الشديدة للجواب بالنسبة لي هي لهفة أم تركها ولدها وسمح لمادية الحياة أن تقتنصه منها ولو ملكت أن تقبل الأحرف التي يحيكها قلم فؤاد لما ترددت، أما شعوري الداخلي عن هذا التقليد الشهري كان مجوفًا، ولم تكن قيمة الجواب بالنسبة لي تتخطى قيمة الورق المكتوب عليه، فالاستماع إلى جواب أب بعيد لا يُمثل قيمة الأب الحقيقية بالنسبة لأبنائه يشبه الاستماع إلى معزوفة مملة بعيدة تمامًا عن ذائقتك الموسيقية، لكنك مضطر أن تتظاهر بالاستماع إليها لتُجاري شخصًا تحبه وتعلم أنه يحب هذه المعزوفة ولا يمل من سماعها، كنت في صغري أتشارك مع بنفسج معرفة فحوى الجواب، ولكن سنواتي الأخيرة معها والتباعد الذي حدث بيننا جعلني أعلن لها صراحة عدم اهتمامي بتلك الجوابات ولا بأخبار فؤاد أو جميلة، كنت أهرب من الاستماع للجواب، لكنني كنت أسأل بفتور عما إذا كان هناك جديد في حياتهما، وفيما بعد لم أعد أسأل عن الجواب ولا أرغب في معرفة شيء يخصهما.

ولكن هذا الشهر لم يأتِ الجواب الذي تنتظره بنفسج، تأخر عن موعده لأول مرة، في البداية ظنت بنفسج أن هناك بعض التأخير في إرسال الجواب أو في تسلمه؛ ولذلك فقد طلبت مني أن أحادث فؤاد عبر تطبيق السكاي بي، لكي تطمئن عليه وتسأله عن سبب تأخر الجواب، لم يحركني تأخر الجواب ولم يثير القلق بداخلي، ربما نسي فؤاد إرساله، وربما نسينا وانشغل عنا بعمله الذي يرى أنه أهم منا، حاولت الاتصال به عدة مرات لكنه لم يجب، حاولت محادثة جميلة عبر حسابها الخاص لكنها لم تجب هي الأخرى، انتزعت بنفسج هاتفها الجوال وحاولت محادثة فؤاد لكنه لم يجب لا هو ولا جميلة، كان الهاتف مغلقًا لأول مرة مما جعل القلق يباغت قلب بنفسج بضربة قاسية، لساعات طويلة وهي تحاول الاتصال بهما دون جدوى، لكنها لم تتوقف عن معاودة الاتصال في كل مرة لعل هناك من يجيب، طلبت مني بنفسج أن أتواصل مع السيد جاستن لعله يعرف السبب في عدم رد فؤاد، وحينما رد على مكالمتي له أخبرته بأنني وجدتي نحاول محادثة فؤاد عدة مرات ولكننا لم نفلح في الوصول إليه، طلبت منه أن يذهب إلي منزله لكي يطمئننا عليه هو وجميلة، كانت مهمة الذهاب إلى منزلهما سهلة لأنه يسكن في نفس الحي الذي يسكنان به، غاب السيد جاستن عنا قليلًا ثم عاد ليخبرنا أنه قد طرق باب المنزل عدة مرات، ولكن ما من مجيب، تواصل السيد جاستين في الأيام التالية مع محل عمل فؤاد وجميلة، وتواصل مع من يعرفهم من رفاق أو جيران، ولكن لم يخبره أي أحد بشيء عنهما، وفي النهاية قام بإبلاغ الشرطة عن واقعة اختفائه المفاجئ، أتت الشرطة مسرعة واقتحمت المنزل، ولكنها لم تجدهما ولم تعثر

على آثار للعنف أو السرقة أو أي دليل يشير إلى اختفائهما، ويبدو أن حقيبة ألغازي كان ينقصها هذا اللغز الجديد.

كانت آخر مرة نحادثهما فيها أنا وبنفسج منذ خمسة أيام ولم نشعر بأن هناك شيئًا غريبًا في حديثهما معنا ولم يخبرانا عن نيتهما للسفر أو للانتقال إلى أي مكان آخر، حديثهما كان عاديًا للغاية يشبه كل تلك المرات التي تحدثنا فيها من قبل ولأول مرة يحدث أشعر أن بنفسج قد أصبحت تتشارك معي في حيرتي وفي ألغازي، انتقلت عدوى القلق من بنفسج إليّ ولم أستطع وقتها أن أفسر سر قلقي على شخصين أُقنع نفسي طوال الوقت بأنهما لا يمثلان لي أي شيء، وأنني قد نجحت في التخلص من خيط العنكبوت الواهن الذي يربطني بهما؟ وأن في اليوم الذي انفصل حبلي السري عنهما كان ذلك إيذانًا بانفصالي الأبدي عنهما، وأنني لا أحمل لهما سوى طاقة كبيرة من الحنق والكره على ما اقترفاه في حقي منذ زمن، كانت حالة بنفسج الصحية والعمرية لا تسمح لها بأن تتحمل هذا الضغط العصبي الشديد ولا تستطيع أن تتحمل خبرًا مروعًا يحمل الشر بين طياته، حاولت بشتى الطرق أن أطمئنها دون جدوى، حاول السيد جاستين التوصل إلي طريق يوصلنا إلى والديّ ولكنه لم يفلح، ثم اقترح علينا أن يقوم باستئجار محقق خاص لكي يتتبع قضية اختفاء فؤاد وجميلة، فربما استطاع أن يدلنا على مكانهما أو الطريقة التي اختفيا بها، وربما يتمكن من العثور عليهما وأخبرنا أنه سيبحث عن محقق ذي صيت طيب في مجال عمله لكي يعثر عليهما سريعًا، لم نتردد لحظة في قبول فكرته، وطلبنا منه أن يبحث عن

محقق جيد بأسرع وقت ممكن، وفي مساء نفس اليوم مساء عاد السيد جاستين لمحادثنا وأخبرنا بأنه قد تواصل مع المحقق ليو والذي ذاعت مهارتُه الفائقة ومقدرته على التحقيق في جرائم الاختفاء الغامضة، ثم أعطاني بياناته لأن المحقق كان يرغب في التحدث معي لكوني ابنة المشتبه باختفائهما، تمكنت من التواصل مع السيد ليو كما طلب مني السيد جاستين وأخبرته بكل ما أعرفه من معلومات عن فؤاد وجميلة، طمأنني بأنه سيبذل قصارى جهده لكي يتوصل إلى أي شيء من شأنه أن يوصلنا إليهما، ولكن الأيام بدأت في الانفراط تباعًا دون جدوى، ودون أن يفي السيد ليو بوعده أو يتوصل إلى حل القضية مثلما وعدنا.

كانت كل الأجواء التي تحيط باختفاء فؤاد وجميلة تبدو طبيعية للغاية وهو ما زاد من تعقد الأمر، فغالبية من رأى فؤاد وجميلة في آخر وقت قبل اختفائهما أكد على أنهما قد أتيا إلى الشركة التي يعملان بها معًا في أقسام مختلفة، وأن كل منهما استقر بمكتبه في موعده المعتاد وأنهما تعاملا مع من حولهما بصورة طبيعية تمامًا لا شبهة فيها، وفي الموعد الرسمي للانصراف من العمل غادرا الشركة معًا، ولم يبد عليهما أي تغير عن روتينهما المعتاد، وأنهما لم يخبرا أحدًا قط عن نيتهما للذهاب إلى أي مكان بعد العمل، ولكن حينما بدأ المحقق ليو في إجراء تحريات مكثفة وفي توسعة دائرة البحث والسؤال بين عدد أكبر من زملاء العمل، أخبره السيد روبرت وهو أحد رفاق فؤاد في العمل، أنه رآه يقف بسيارته في إحدى الإشارات المرورية وبجواره جميلة وكان ثالثهما رجلًا يحمل ملامح هندية، وله بشرة سمراء، يرتدي زيًا هنديًا تقليديًا، وأنه كان يتحدث معهما، ولكن ما إن فتحت الإشارة حتى انطلق فؤاد بالسيارة وكانت هذه آخر مرة يراه فيها، أخبرت

بنفسج بما توصل له السيد ليو، وقبل أن أتم حديثي،امتقع وجهها، وتبدلت ملامحها، ذهب رحيق الحياة من روحها مرة واحدة، ورددت بهيستيرية:

–يا الله! لقد تمكنوا من الوصول إليه بعد كل ما فعلناه؟

لم أفهم ما ترمي إليه، رجوتها أن تتحدث معي وأن تخبرني بكل شيء وأن تعلمني بحقيقة الأشخاص الذين تمكنوا من الوصول إلى والدي، وأن الموقف الذي وضعنا فيه الآن يعطيني الحق أن تكشف لي كل شيء وأن تخبرني بما تخفيه عني، توسلت إليها أن توضح لي الأمر برمته لكي أفهم ولكنها اكتفت بالدموع التي انهمرت كشلال متدفق، طلبت مني بنفسج أن أحادث السيد جاستين وأطلب منه أن يجلب محققًا جديدًا لكي يعاون السيد ليو في عمله لعله يفيدنا بشكل أكبر عن تلك الواقعة الأخيرة التي برزت على سطح الأحداث، وبالفعل عدت لأحادث السيد جاستين من جديد وطلبت منه أن يبحث لنا عن محقق إضافي لعله يصل إلى مما لم يصل إليه المحقق ليو، وبالفعل استطعنا أن نعثر على محقق جديد بخلاف المحقق ليو، ولكنه لم يستطع أن يصل لأكثر ما وصل إليه السيد ليو، كان هو أيضًا يؤكد نفس المعلومات التي جمعها المحقق الأول من قبل ويخبرنا بالأمور ذاتها..

لم تتحمل بنفسج وطأة ما يحدث حولها وبدأت حالتها الصحية في التدهور بسرعة حجر يهوي من قمة جبل، وكلما كان يمر يوم جديد دون أن نصل فيه إلى خبر يُطمئن قلبها على ابنها الوحيد، كانت حالتها تتداعى أكثر، كنت أشعر بحيرة شديدة وبأنني عاجزة عن التصرف، فتاة مثلي لا

تعرف شيئًا عن رحيل والديها وعلى مشارف فقدان جدتها، الشخص الوحيد المتبقي لها من أسرتها التي لا تعلم عنها ولا منها الكثير.

كنت أخشي أن يحدث لبنفسج مكروه قبل أن تخبرني بكل الأمور المخبأة عني والتي وعدتني بأن تكشفها لي حينما يئين الأوان مثلما كانت تُردد كلما حاصرتها بأسئلتي، كان هناك هاجس بداخلي يخبرني أن اختفاء والديّ له علاقة وثيقة بالسر المُخبأ عني والذي لا أعرفه وأنني ربما لو عرفته لتمكنت من حل تلك الأحجية ومعرفة سر اختفاء والديّ المفاجئ، ولكن بنفسج لآخر وقت كانت تصر على أن تطبق فمها، وتأبى أن تتحدث معي أو تفصح لي عن الحقيقة لتتركني في حيرة مضاعفة، كانت تلك الفترة من أسوأ فترات حياتي على الإطلاق ولكنني لم أكن أعلم أن الأسوأ ما زال في انتظاري.

***

11

كان من العسير عليّ أن أخبر آدم من خلال محادثة هاتفية بكل ما يحدث لي في أثناء غيابه، لم أجد كلمات تستطيع أن تصف له الألم الذي أشعر به، فكيف أخبره بكل بساطة أن فؤادًا وجميلة قد رحلا عن حياتي للمرة الثانية دون أن يتركا لي تفسيرًا مقنعًا عن هذا الرحيل، كيف أخبره بأنهما لم يكتفيا بما فعلاه بي سابقًا، ليتركاني على أعتاب متاهة متشابكة الطرق لا أتمكن من تخمين طريق النجاة منها والذي سيوصلني إلى بوابة الخروج، كيف أخبره أنهما لم يتركا لي أثرًا واحدًا يقودني إليهما؟ كنت أرجئ إخباره بالأمر لعل أحد المحققين اللذين يبحثان في قضية اختفائهما يجلبان لي خبرًا يطمئنني أو يتمكنان من معرفة ما حدث لهما بالضبط، ولكن الأيام لا تحمل لي معها إلا مزيدًا من التدهور لحالة بنفسج الصحية.

فقد اعتزلت كل شيء منذ خبر اختفاء فؤاد عنها وانقطعت عن القراءة هوايتها الأثيرة التي كانت تدفن فيها وحدتها هي الأخرى، لم تعد تتحدث معي وكان كل ما فعلته هو أنها استسلمت للمرض وفقط، ولم

ينجح كل الأطباء الذين أحضرهم لها تباعًا في أن يصفون لها عقارًا واحدًا يعيد إليها صحتها.

كان الجميع يتحدث عن حبها الشديد لولدها الوحيد وأن جاثوم المرض الذي حل بجسدها ليست له أسباب عضوية تُذكر اللهم سوى وهن الشيخوخة الذي يقعد السليم دون مرض، كنت أعلم أن ألم الروح المكلومة بفقد ولدها الوحيد هو السبب في كل ذلك، وأن العلاج يتلخص في إحضار فؤاد أو معرفة أي خبر عنه ليطمئن روحها المحترقة، كنت أقف مكبلة اليدين، ألمح غياب آثار الحياة بسرعة الضوء من جسد المرأة التي تمثل كل عائلتي، وفي المساء الأخير لها معي، أجلستني بجوارها وبث لي بعضًا من وجعها ثم رحلت بعد أن قالت:

- هذا الأمر لم يحدث لي سوى مرة واحدة فقط من قبل، حينما رحل ميرزا عن حياتي، كنت أحبه لدرجة كادت أن توقف نبض قلبي، لم أكن قادرة على تخيل حياتي من بعده، كان غيابه قاتلًا لي، أما موته فقد كان حقيقة لم أستطع تقبلها أو اعتيادها، كشر الألم لي عن أنيابه وكاد أن يبتلعني في جوفه لولا مجيء فؤاد، ذلك الطفل الذي حمل الكثير من أبيه والذي صالحني مرة أخرى على الدنيا وجعلني أتخذ قراري بأن أحيا لأجله مائة مرة، حتى أتيتِ أنتِ يا هالي، حينما تعافيت من نكبتي في فقد ميرزا في المرة الأولى صرت أعتقد أنه ما من شيء سيقدر على أن يعيدني إلى ما كنت عليه من قبل،كنت أحاول أن أتحلى بالصبر طوال الوقت لأنه الشيء الوحيد الذي يمنح الإنسان القوة الدائمة لكي يطيق ما يكره ويتحمل

رحيل من يحبهم عنه، فيكتفي بإبقائهم داخل قلبه والاطمئنان عليهم متى اشتاق إليهم، ليحيا رغم أوجاع الفقد مؤتنسًا برحيلهم، ولكن ما فعله بي اختفاء فؤاد تلك المرة هزني للغاية، لقد عشت كل تلك الأعوام عاجزة عن تحمل رحيل الأب، فكيف أتحمل رحيل الابن أيضًا؟ كان فؤاد على الرغم من بُعده عني بحكم المسافات قريبًا من قلبي، كنت أحيا على أمل أن تتحقق المعجزة ونتخلص من مخاوفنا فيعود ويكتمل شملنا ذات يوم، فنحن لم نرد الشر لأحد، ولم نطمح إلا في العيش بسلام،كنت أنتظر منه أن يعود ليخبركِ بكل شيء بنفسه ليشفي جرحكِ الغائر وجرحي المزمن الذي ما أندمل يوم منذ موت جدكِ، ولكن يبدو أن الأقدار لم ترد ذلك لنا، وأتى غياب فؤاد ليقضي على أمل السنوات الطويلة، أتعلمين يا هالي أنني ما زلت أرقب كفه الممدودة بكل حب، وابتسم، ولكن يبدو أن هذا لن يتحقق إلا في عالم آخر، عالم أشعر بأنني ذاهبة إليه بعد قليل، لأنني أعلم أنه لن يعود، قلبي يحدثني أنه لن يعود، بل سأكون أنا من يذهب إليه.

***

12

كانت تلك هي المرة الأولى التي تحدثني فيها بنفسج عن جدي ميرزا من تلقاء نفسها دون أن أطلب منها ذلك، فهي لم تكن تتحدث قط عن قصتها معه مهما رجوتها، وقلة حديثها عنه جعل معرفتي به مشوشة للغاية لدرجة أنني كنت لا أعلم شكله، لأنني لم أر صورة له من قبل.

أما في ذلك اليوم الذي تحدثت فيه بنفسج عن ميرزا زاد شعوري الداخلي بأن اختفاء فؤاد وثيق الصلة بموت جدي، لكنني لم أملك دليلًا حقيقيا يؤكد صدق شعوري، كان نجم بنفسج يتهاوى أمامي بشكل سريع لا أتمكن من إيقافه، وقد كنت أحسب أن بنفسج مثلها مثل الشجرة التي لا تبكي، ولا تشكو الوحدة أبدًا، بل إنها لا تلوم من غرس نبتتها إن أهمل في سقياها، فالشجرة تبتسم وتطرح الثمر رغم قلة المطر، تزهر، وتسر العين بخضرة لونها، لا تأبه بطير أو بشر، الشجرة تقف ثابتة في وجه الرياح مهما اشتدت، الشجرة تعلم أنها شجرة، ولا تكترث لأحد، ولكن اختفاء فؤاد أفقد الشجرة كل الثمر وقضى على ما تبقى من أوراقها الذابلة وفروعها المتيبسة حتى ماتت.

ماتت الشجرة التي روتني طوال الأعوام الفائتة، توقفت عن إعطاء الظل والثمر، حينما رحلت عني شعرت بأنني فقدت روحي كلها لا بعض منها، لا أعلم كيف شيعت جثمان بنفسج وكيف تحملت مواراة التراب فوق جسدها المثخن بالألم حتى الثمالة؟

مرت تلك الأوقات مثلها مثل كابوس ليلي تريد أن تستيقظ منه لكنك عاجز عن فعل ذلك، أنت في مكان مقفر، تواجه الكثير من الأمور التي لا تستطيع أن تتحملها، ولكن سيناريو الكابوس الخانق يأخذك مرغمًا إلى مناطق لا تريد أن تذهب إليها، تريد أن تصرخ، أن تفيق، أن تنهي كل ذلك برمشة عين، ولكنك عاجز عن فعل أي شيء.

كنت أشعر أنني في كابوس أحياه في الواقع ومهما تنمُ وتستيقظ فلن يتغير ما أنا فيه، لن تختفي كل تلك الأمور الجسام من حولي لأحيا حياة طبيعية مثل بقية البشر، هذا أمر بعيد عن عالمي البائس تمامًا

لا أعلم عدد الأيام التي مرت دون أن أفتح هاتفي أو أنظر إليه، أمكث في منزلي ولا أبرحه، لا أشعر بالساعات ولا أميز الليل من النهار، فقد جفت الدموع، وسُكبت محابر الأقلام.

وفي صومعة الألم لاح لي طيف آدم في الأفق، كان عليَّ أن أخبره بكل شيء، لن أستطيع إخفاء كل ما حدث لي في غيابه أكثر من ذلك.

استجمعت قواي وشرعت في كتابة رسالة إلكترونية طويلة، أخبره فيها بكل شيء وأطلب منه أن يعود سريعًا لكي يكون بجواري لأنني لا أقوى

على مواجهة كل تلك الصعاب وحدي، كنت أشعر بحاجتي الشديدة إليه، لا سيما أنه لم يعد لديّ من أستطيع أن أهبه ثقتي غيره، كان هو الشخص الوحيد القادر على التخفيف عني في تلك المحنة المريرة، لم أستطع الاتصال به أو الاعتراف أمامه بكل ما حدث خلال فترة غيابه، قررت أن أخبره بكل شيء عبر رسالة طويلة خوفًا من أن تموت الكلمات في حلقي إذا قررت النطق بها، فالرسائل وسيلة أسهل في الاعترافات والبوح، كانت الرسالة التي أرسلتها له طويلة للغاية، ولكنها كانت ضرورية لأخبره فيها عما حدث لوالديّ من اختفائهما الغامض ومن بحثنا المضني عنهما دون جدوى، أخبرته عن موت بنفسج، حدثته عن وحدتي وافتقادي الشديد له، وأخبرته أنني في انتظاره، ثم ضغطت زر الإرسال، وانتظرت منه الرد، ولكن الرد لم يأتِ، لم يأت أبدًا.

***

13

انتظرت من آدم أن يرد على رسالتي، لكن ذلك لم يحدث، تفقدت البريد الإلكتروني عشرات المرات؛ لكي أتأكد من إرسالي للرسالة، كنت أجدها دومًا في بريد الصادر؛ مما يعني أنني قد أرسلتها بالفعل،وأنه لا يوجد أي خطأ في اتصالي بالإنترنت، ولكن لماذا لم يرد مروان عليَّ فور قراءته لها؟ لماذا لم يحاول محادثتي؟ لماذا لم يأت سريعًا من أجلي كما طلبت منه؟ داهمني القلق الشديد عليه،وخشيت أن يكون قد أصابه مكروه هو الآخر، اتصلت به كثيرًا لكنه لم يرد، وفي النهاية وجدت هاتفه مغلقًا..

بلغ بي القلق منازل كبرى، لم أكن أعلم ماذا سأقول له إذا حادثته إلا أن رغبتي في الاطمئنان عليه وفي سماع صوته كانت تلح عليَّ بشدة، لا بد لآدم أن يكون بخير، لا يجب أن يختفي من حياتي هو الآخر، لن أتحمل أن ينفض من حولي جمع الأحباء على قلته مرة واحدة.

فقد صار لي آدم كل شيء في الحياة بعد أن لم يعد لي أهل لي ولا أصدقاء، فعلاقتي بالأصدقاء كانت أغلبها افتراضية عبر شبكات الإنترنت أما علاقتي به فكانت هي العلاقة الوحيدة الحية والمتبقية في حياتي الخاوية،

ظل هاتف آدم مغلقًا لعدد من الأيام ثم علمت من خلال الأصدقاء المشتركين بيننا عبر الفيس بوك عودته من السفر دون أن يحاول الاتصال بي أو يرد على رسالتي، أرسلت له العديد من الرسائل لكنه لم يرد على أيٍّ منها، حتى وجدت صديقه أحمد يهاتفني ويخبرني أن آدم سيتقدم لخطبة ابنة صديقة والدته ميرنا، وأنه قد طلب منه أن يخبرني بأنه غير مستعد للارتباط بفتاة لا يعرف لها عائلة مثلي، وأن أسرته لن توافق على فتاة بلا أب تتحدث معه عائلته إذا قرر أن يخطبها أو يرتبط بها،وأنه قد وكله بالاتصال بي وبإخباري بالأمر كله حتى أتوقف عن مطاردته وإزعاجه طوال الوقت باتصالاتي المتكررة ورسائلي الإلكترونية المزعجة والتي لا تتوقف.

لم أصدق ما قاله أحمد لي إلا حينما وجدت صورة آدم عبر صفحته الشخصية بالفيس بوك بعد أيام هو وخطيبته الجديدة ميرنا، وعشرات التعلقيات لتهنئته بالخطبة السعيدة، أعدت قراءة التعليقات والنظر إلى الصورة عدة مرات؛ لكي أتأكد مما فهمته، فمثل هذه الأمور لا تحتمل الخطأ، كانت تقف بجواره ترتدي فستانًا بنفسجيًا بسيطًا للغاية ويفتقر للذوق، يضمها إلى صدره بحميمية، شخصان يعرف أحدهما الآخر جيدًا منذ فترة، يقف مبتسمًا، وعيناه منبتتان تجاه الكاميرا التي التقطت الصورة له معها، مرتديًا سترة رصاصية أنيقة ومشذبًا ذقنه بطريقة مثالية كما أحبها تمامًا، أما هي فتضع القليل من أصباغ التجميل على وجهها، وتكتفي بابتسامة سعادة وثقة كأنها تكيدني وحدي وتعلن انتزاعها له.

هل من الممكن أن يتخلى آدم عني بتلك السهولة ويتركني بسبب أمور لا يد لي فيها؟ كان الأمر أكبر من أن يستوعبه قلبي، فماذا عن الوعود والعهود التي قطعها على نفسه والتي أخبرني بأنه لن يحنث بها قط؟

لا أعلم ماذا كانت تعني مقولة: "سأظل معكِ للأبد" والتي واعد بها قلبي ذات يوم في إحدى لحظات سعادتنا النادرة؟ هل كانت تعني في قاموسه أنه سوف يبتعد عني حينما يمل؛ أو يكل؟ هل كانت تعني أنه سيقفز من القارب ويفر هاربًا حينما لا تعجبه عبثية الأمواج؟ هل كانت تعني أنه سيتركني على آية حال وحيدة؟ أهذا هو مفهوم الأبدية في عالم الرجال؟

كم كنت حمقاء حينما صدقت كلامًا كاذبًا وأقنعت نفسي بأنه يحبني وأن هناك أبدية قد ربطت شغاف قلبي بقلبه، لقد طلبت منه البقاء في حين أنه لم يكن يفكر إلا في الرحيل، استحلفته أن يحيا معي الحاضر والمستقبل وهو يصر على دفن حبنا داخل ركام الماضي، رجوته أن يكون لي وهو قانع بأنه سيكون لغيري،طلبت منه أن يذكرني، وما كنت أعلم أنني سوف أكون ممن ينساهم قلبه، كانت وجعيتي أكبر من كل شيء وكنت أرغب في أن ألملم حبي وضعفي وخوفي وأرحل في محاولة مني للحفاظ على قلبي داخل جوفي بدلًا من أن يتلاعب به رجل طائش على الأغلب لن يدرك فداحة كلماته أو أفعاله، لكني وحدي من أدرك ذلك حينما اعتراني الندم وقت لا ينفع فيه الحب.

كفي يا قلب، فمتلفك أتلفك من قبل أن يعرفك، لقد كنت أريد من ذلك الذي يحبني أن يراني الأجمل رغم أنني أعلم أنني لست أجمل النساء، وأن يراني الأكثر ذكاءً، رغم أنني لست أكثرهن ذكاءً، كنت أريد من ذلك الذي يحبني أن يؤمن بأن كلمة أحبك حينما أقولها له ستساوى لديه الدنيا بما فيها، وأن لمسة يدى قادرة على قلب كيانه وإذابة دمه داخل شريانه، وإيقاف قلبه عن خفقانه، كنت أريد من ذلك الذي يحبني أن تتلاحم أفكاري مع أفكاره وأسراري مع أسراره فنصير بحبنا كالروح الواحدة التي تسير في جسدين، كنت أريد من ذلك الذي يحبني أن يهتم لأمري، وأن تُكتب على يديه أحلى أيام قدري، كنت أريد من ذلك الذي يحبني أن يصير الحارس والفارس فلا أشعر معه إلا بالأمان، لم أكن أريد منه أن يتركني ويذهب لغيري، لم أكن أتمنى أن تطب كفتى بالعقل في ميزانه فيتناسى الحب ويتناسى أوانه، ولكن آدم لم يحبني الحب العظيم الذي كنت أبحث عنه، فرحل عني وهو يعلم أني ليس لي سواه، لقد رحل بعد أن علمني أن المرأة التي تفتح باب قلبها لأول طارق وترفع لافتة "لقد وقعت في الحب" ستتألم وحدها كثيرًا.

يخبرني قلبي أنني إذا سرت في طريق سوف أراه سائرًا بجواري فمثلي لن يقنع برحيل من أحبهم فمتى كان رحيل الأبدان يكفي المحبين؟ فالرحيل لأمثالي لا يتم إلا برحيل روحي عن روح من أحب وبرحيل قلبي عن قلوبهم وقد تأكد لي ذلك حينما رحلت بنفسج وحينما اختفى فؤاد وجميلة – رغم حنقي عليهما – وحينما رحل آدم.

لم أكن أعلم أن روح آدم قد أصابها العطب وأنها قد مست بعطبها روحي وآلمتها وأن بنفسج كانت على حق رغم أنها لم تعلم عنه الكثير إلا أنها كانت تحمل داخلها قبسًا من نور مكنها من رؤية ما لا أراه في روحه ولا أعلم كيف طلبت من آدم أن يُطيب جروحي، وأن يتحملني بينما هو لا يفكر إلا في ذاته، فكيف نطلب الحب من الذين يعجزون عن محبة أي مخلوق آخر سوى أنفسهم؟ أعلم أنه ما من أمل للرجوع إلى أيام العصافير المحلقة وأن قدري هو أن أدرك أنني قد أحببت رجلًا منتهي الصلاحية، أيها القريب جدًّا والذي صار اليوم بعيدًا جدًّا، أيها البعيد جدًّا والذي كان بالأمس قريب جدًّا، فارق رأسي، غادر كوابيسي، أمسح بصمتك من قلبي، وأرحل عن أرضي، اتركني عطشى، فلا يهم بأي حال تتركني فما من يوم اهتم جندي بأسير أوقعه في حربه ولا أسد بغزال قضى عليه في صيده.

ما حدث معي أشعرني بمدى عبثية الحياة، وبأننا قد أتينا إليها لكي نتعذب فيها ولا شيء آخر، ما الحكمة من أن يولد طفل جديد، إذا كان كل يوم يدنيه من الموت؟ ما الحكمة من أن نولد، نتزوج، ننجح، ننجب. ثم نموت بعد كل ما فعلناه؟ ما الحكمة من أن نحب، نأمل، نطمح، ننتظر، ثم يختفي كل شيء في النهاية؟ ما الحكمة من أن نظن أننا نتحكم في حياتنا، وأننا أبطال قصصنا الشقية، في حين أننا جميعًا مجموعة من الكومبارس الذين يتحركون وفقا لسيناريو لا يحق لهم إبداء رأيهم فيه، غير أنهم يجب أن يؤدوا أدوارهم في العرض الذي لا تُغلق ستائره إلا بأمر من المخرج،

ثم يسلمون لغيرهم الأدوار حينما تنتهي أدوارهم، ليستمر العرض بهم وبغيرهم، أشفق على هؤلاء وأولهم نفسي فنحن جميعًا نلهث طوال الوقت خلف سراب زائف، ما الحكمة من كل هذا الألم الذي أحيا فيه؟ وما الدرس الذي لم أستطع تعلمه برحيل فؤاد وجميلة، لكي يعيد الله تلقينه لي في بنفسج ثم في آدم؟

ما الدرس يا الله؟ أخبرني إن كنت تسمعني، أخبرني إن كنت موجودًا بالأعلى فقد أصبحت أشك في تلك الحقيقة لأنني لا أشعر بها ولا أراها فكيف أصدقها؟ هل ترتضي لنا العذاب فتتركنا للألم ينهش أرواحنا؟ وهل بتلك الطريقة تكتمل ربوبيتك؟

كان لديّ احتياج شديد لأن أشعر بمشاعري وأن أعبر عنها بقوة لكي أستطيع تقدير ذاتي من جديد، ولكن الورق تلك المرة لم يكن كافيًا لهذا الأمر، كانت روحي متألمة للغاية وكان قلبي فارغًا وفي تلك اللحظة تجلت لكي فكرة من كلمة واحدة "الانتحار"، كان الانتحار بالنسبة لي هو الخلاص من كل شيء، خاصة وأن ما من أحد سيبكيني وما من مخلوق سيرثيني، بل إنه لن يشعر بغيابي فرد واحد اللهم سوى شرذمة قليلة من الأصدقاء الافتراضيين، والذين سرعان ما ستنسيهم حياتهم الخاصة وجودي، لم أكن من المحظوظين الذين رأوا من الدنيا خيرها فتنعموا، ولا صادفوا أشخاصا يجعلونك ترى من الدنيا مكانًا أفضل فتحملوا مشقتها، إذا قُدر لي الاختيار، فما كنت اخترت المجيء، كثيرًا ما أرى أن العدم هو الحالة المناسبة لأمثالي، ألا أكون هنا بين البشر لأنني عدم، العدم هو حالة

من الاستقرار الأبدي في اللاشيء، لن تكون مجبرًا وقتها لتجرب المشاعر الإنسانية المرهقة، فلا حب، لا ألم، لا فقد، لا موت، لا حزن، لا غربة، لا وحدة، لا شيء..

كانت فكرة الانتحار تسيطر على عقلي بشدة حتى أنني رأيت منها طريقة الخلاص الوحيدة من تلك الحياة التي تنهك قوايّ، كنت قريبة جدًّا من تلك الخطوة، فكرة إنهاء حياتي تغريني بفعلها وتعدني براحة أبدية لا ألغاز فيها ولا ألم، وكان كل ما ينقصني هو تحديد الطريقة التي سوف أنفذ بها آخر قراري في حياة عديمة القيمة.

***

الرحلة

"إن تكن تبحث عن مسكن الروح فأنت روح، وإن تكن تفتش عن قطعة خبز فأنت الخبز، وإن تستطع إدراك هذه الفكرة الدقيقة فسوف تفهم أن كل ما تبحث عنه هو أنت". جلال الدين الرومي

20

تغلب الوسن على دموعي فنعست، وفي هذه الليلة زارتني بنفسج في المنام، يبدو أنها شعرت بافتقادي الشديد إليها فقررت أن تجبر القليل من كسري، وما إن رأيتها ترتدي ثوبًا سماوي اللون وشعرها الكستنائي الطويل الذي تخلص من شيبه واستعاد بهاء لونه يتبختر فوق كتفيها حتى ركضت نحوها، وارتميت بين أحضانها وقلت لها من بين انتحابي.

- لماذا مُتِّ وتركتِني؟

-من نحبهم لا يموتون وإنما يذهبون إلى مكان أفضل ترعاهم فيه محبتنا لهم، وذكرياتنا معهم، ودعواتنا الدائمة لهم، نبقيهم داخل قلوبنا ونذكرهم بكل خير، ربما لم أعد معك، لكني أعلم أنني أحيا بداخلك.

- أشعر بالألم الشديد يا بنفسج..

ضمتني إلى صدرها أكثر ثم ربتت على كتفي وقالت:

- احتضني ألمك فهو الطريقة الوحيدة للنجاة، إن الألم هو الذي يخرج العظمة من ذواتنا، فما من عظيم لم يطرق الألم بابه ليمكث لديه عدة ساعات أو أيام أو ربما حفنة من السنوات.

قلت لها:

- فقداني لكِ ولكل من أحب أفقدني الكثير، حتى أنني أشعر بفراغ قلبي، كيف أستطع أن أصدق مجرد كلمات تتسم بالحكمة تُقال من فم لا يشعر بمن يعاني، من يتألم يصعب عليه أن يؤمن بكلمات مجوفة.

تبسمت وكأنها لم تسمعني بنفسج وقالت:

- أتعلمين أننا قد نحتاج إلى الألم أحيانًا لكي يساعدنا على النضج؟

نزعت نفسي من بين أحضانها ونظرت إليها متهكمة وقلت لها:

- أخبرتك أنني لن أستطيع أن أصدقكِ تلك المرة، فقد أصبحتُ فتاة لا تؤمن بأي شيء، فتاة لم يعترف بها والديها حينما أتت إلى الدنيا، واختاروا أن يرحلوا عنها مرتين، ثم تركتها أنتِ رغم أنكِ تعلمين ماذا سيفعل بها غيابكِ، ثم ابتعد عنها حبيبها ليعاقبها على ذنوب فعلها غيرها فيها ليضيف بفعلته تلك المزيد من الآلام إليها.

اقتربت مني بنفسج قليلًا ثم قالت:

- ربما لو قمتِ بالرحلة ستتيحين للألم الذي بداخلك فرصة الرأب، فبدون الرحلة لن يكتمل الشفاء..

-

سألتها متعجبة:

- أية رحلة؟

وسريعًا جاءني ردها:

- الرحلة التي سوف توصلكِ إلي المكان الذي نجلس فيه الآن، هنا سوف تقابلين صديقًا عزيزًا عليَّ، وسوف يعطكِ ما لم أستطع أنا أن أعطيك إياه.

تلفتُّ حولي لكي أتمكن من تحديد المكان الذي نجلس فيه أنا وبنفسج، ولكنني لم أنجح في التعرف عليه فهو مكان لم تره عيناي من قبل،كنا نجلس أمام كهفين منحوتين داخل أحد الجبال، في منطقة مقفرة لا يوجد بها أحد سوانا،وحينما وقفت لكي أتأمل المكان بأكمله هالني هذا العدد اللامتناهي من الكهوف المحفورة داخل الجبال المحيطة بنا، كانت للمكان طبيعة مختلفة تمامًا عن أي مكان رأيته من قبل، لم أنجح خلال الحلم في تحديد موقع تلك البقعة، فكيف سأتمكن من الذهاب إليها وحدي، وأنا لا أعرف مكانها ولم أذهب إليها من قبل؟ وهنا لم أتمالك أعصابي وصحت في بنفسج:

- أين نحن يا جدتي؟!

تلاشت بنفسج من أمامي كفقاعة ملونة تتجمل أمام العين وفجأة تصبح لا شيء وهي تقول: نحن في كهوف موستانغ.

***

20

استيقظت من النوم مذعورة والجملة الأخيرة التي قالتها لي بنفسج تتردد في أذني، وصورة المكان الذي كنت فيه معها منطبعة بداخلي، أسرعت بكتابة ما أخبرتني به بنفسج في عجالة من أمري داخل مفكرتي الصغيرة الراقدة على الكومود المجاور لفراشي كي لا أنسى ما بُلغت به، كنت قد اعتدتُ أن أحتفظ بتلك المفكرة بجوار فراشي، حتى أدّون بها كل الأفكار التي تراودني قبل النوم أو الأحلام التي تزورني في المنام قبل أن أنساها، ثم أعود لأبحث عن تفسيرات لها فور استيقاظي..

حاولت أن أعتبر هذا المنام مجرد حلمًا عاديًا إلا أنني كلما حاولت أن أتناسى تفاصيل المكان الذي كنت فيه مع بنفسج، أجد صورته تقفز سريعًا في مخيلتي، ولا أعلم من أين تتسلل تلك الصورة!

أغلق النافذة، ثم أغلق باب حجرتي، ولكن رغم كل شيء تستمر تلك الصورة في الظهور، تتجمل في عينيّ في عتمة الهروب، فأطفأ ضوء الحجرة، ولكني أستمر في رؤيتها، ألعنها في الظلام، ثم أتمدد فوق فراشي، وأتدثر

بكل الأغطية الممكنة لعلي لا أرى تلك الصورة مجددًا، لكنها تعاندني وتستمر في الظهور، حتى أنني حينما أغلق عينيّ أراها في تلك العتمة كأوضح ما يكون، فما كان مني إلا وأزلت الغطاء من فوقي، ثم أضأت نور المصباح الكهربائي المجاور لفراشي، وجلست أفكر مليًّا في معنى تلك الجملة التي تفوهت بها بنفسج وفي هذا الصديق العزيز الذي لم تخبرني عنه من قبل والذي سوف يُعلمني ما لم تعلمني هي إياه، وفي ذلك المكان الذي كنت فيه معها في المنام، هل تكون كهوف موستانغ المكان الذي تقصده جدتي؟

وفجأة أنارت فكرة عابرة ظلمات عقلي، لماذا لا أبحث عن معنى كلمة موستانغ في شبكة الإنترنت لعلها تحمل إشارة حقيقية تُقربني من المكان الذي قصدته بنفسج أو تُقربني منه؟ نهضت من فراشي وسارعت بالتقاط حاسوبي الشخصي من فوق سطح مكتبي وفتحته، ثم كتبت اسم موقع البحث الشهير جوجل، وفي خانة البحث المستطيلة كتبت كلمتين لا ثالث لهما " كهوف موستانغ"، ويا لا دهشتي مما وجدت!

***

20

- "منطقة موستانغ التي تطل على هضبة التبت، هي واحدة من أكثر المناطق النائية والمعزولة في نيبال والتي تقع في منطقة جبال الهيمالايا، وكانت مملكة بوذية مستقلة في نهاية القرن الـ 18، وكانت تلك المنطقة بسبب موقعها الجغرافي محظورة عن الأجانب حتى عام 1992، وقد ساعدت هذه العزلة على عزل منطقة موستانغ عن العالم الخارجي والحفاظ على الثقافة القديمة الخاصة بها، والتي ترتبط بشكل وثيق بمنطقة التبت ونيبال".

التهمت عيناي الأسطر التي أظهرها لي محرك البحث جوجل، ويبدو أن جوجل كان كريمًا معي للغاية فقد أمدني بالكثير من المعلومات التي لم أكن أعلمها من قبل، أخذت أتطلع إلى الصور المتعلقة بنتيجة البحث الخاصة بي،وجدت بها العديد من الصور التي تشبه إلى حد كبير المكان الذي كنت فيه أنا مع بنفسج، وعلمت من خلال بحثي أن منطقة موستانغ هي منطقة ذات طبيعة جبلية، ويوجد بها العديد من الكهوف المنحوتة داخل الجبال،

كانت بعض الصور مكتوبًا أسفلها "الكهوف الغامضة في هضبة التبت "أخذت أتطلع إلى صور تلك المنطقة، ثم أكملت البحث حول المزيد من المعلومات عن تلك الكهوف الأسطورية، أخذت أقرأ المزيد من الأسطر الظاهرة على شاشة الحاسوب.

"ويعتقد علماء الآثار أن كهوف موستانغ استُخدمت في ثلاث فترات من التاريخ.. فقد استخدمت في أول مرة منذ 3000 سنة كغرف للدفن، ثم منذ 1000 سنة استخدمت كأماكن للمعيشة، أو ربما للهروب من المعارك الدائرة في ذلك الوقت في الوادي أو من الدخلاء، وأخيرًا قبل 1400 سنة انتقل الناس إلى القرى التقليدية، لتصبح تلك الكهوف أماكن للتأمل، وقد تحولت بعض هذه الكهوف إلى أديرة مثل دير لوري جومبا".

فور انتهائي من تصفح العديد من المواقع التي تتحدث عن منطقة موستانغ وكهوفها الغامضة، أدركت أن ما رأيته في منامي لم يكن مجرد حلم عابر، فالمكان حقيقي بالفعل وله وجود، أدركت وقتها أن ما رأيته لم يكن أضغاث أحلام، وأن بنفسج لم تتفوه بكلمات لا معنى لها، بل يبدو أن هناك رسالة خاصة كانت ترغب في إيصالها لي من خلال ذلك المنام فرؤيتي لها لا يمكن أن تعدو مجرد حلم وينتهي أمره،لا بد أنها تريد أن تخبرني بشيء ما كما قالت، وأن هناك تجربة مميزة تنتظرني إذا فكرت في اتخاذ قراري بالقيام بتلك الرحلة التي حدثتني عنها حينما رأيتها، ولكن هل تستطيع تلك الفتاة التي كان يفصل بينها وبين الانتحار القليل، والتي لم تقم بآية مغامرات في حياتها قط، أن تقوم بتلك الرحلة دون مساعدة من أحد؟

كنت أعلم أن الأمر لن يكون سهلًا، ولكن يبدو أنه كان مقدرًا لي أن أقوم به، وفي تلك اللحظة شعرت أن هناك حدثًا عظيمًا اقترب نحوه بقوة وأنه بصدد أن يُغير من مجرى حياتي بأكملها.

***

17

كانت الأيام التي تلت ذلك المنام تقتصر على قيامي بالعديد من الاتصالات بشركات الطيران والسياحة الخارجية، لكي أسألهم عن كيفية السفر إلى منطقة موستانغ، والتي علمت أنها تقع في نيبال، وقد علمت أيضًا من خلال اتصالاتي أنه لا توجد رحلات مباشرة تتجه إلى موستانغ؛ لأن تلك المنطقة تُعتبر من المناطق المعزولة في جبال الهيمالايا، وأنني لكي أذهب إلى منطقة موستانغ العلوية يجب أن أتجه إلى نيبال في المقام الأول حيث تصل بي الطائرة إلى العاصمة كاتموندو، ومن مدينة كاتموندو سوف أتوجه إلى مدينة بيني بواسطة سيارات الجيب، وفي الصباح التالي سوف أستقل سيارة أخرى متجهة إلى مدينة جومسون، ومن مدينة جومسون سوف أبحث عن وسيلة أصل بها إلى قرية سامتزونج والتي تبعد مسيرة ثلاث ساعات عن كهوف موستانغ.

كان القرار مخيفًا للغاية بالنسبة لي، فكيف أقرر أن أتجه إلى المجهول وحدي؟ وكيف سأنجح في إتمام تلك المهمة بمفردي؟ كنت أشعر أن هناك

عناية إلهية تحوطني، وأن أعين بنفسج ترقبني في جميع خطواتي، أعلم أنها لن تتركني وحدي وأنها لن تدع مكروهًا يحدث لي، كنت ما زلت أومن بها على الرغم من غيابها، فظهورها لي في هذا الوقت كان يعدُّ طوق الخلاص من كل ذلك الألم الذي شعرت به في الأشهر الأخيرة من حياتي.

كان الشغف الذي ظننت أنه فارقني قد عاد من جديد ليحدوني بقوة ويحثني إلى إتمام إجراءات السفر بأقصى سرعة، كنت أرغب في لقاء الصديق الذي ذكرته لي بنفسج، وكنت أتمنى أن أجد لديه إجابات عن كل تلك الأسئلة التي أنهكتني، شعرت في تلك اللحظة أن حياتي الخاوية قد صارت ممتلئة بحدث كبير انتشلني مما أنا فيه، وأنني أقترب كثيرًا من طريق الخلاص، ربما تكون الوجهة مجهولة، والغاية غامضة، إلا أن الحقائق لا تتجلى إلا للعارفين، والعارفون لا ينالون درجات المعرفة إلا بالمثابرة والجد.

أوكلت إلى نفسي مهمة القراءة عن منطقة موستانغ العلوية وعن كهوفها الغامضة،وكذلك عن سكانها المحليين الذين يعيشون في تلك المنطقة وعن عاداتهم وتقاليديهم، وعن اللغة الأم التي يتحدثون بها، علمت أن اللغة في تلك المنطقة هي اللغة التبتية التقليدية والتي لن أستطيع التحدث بها بالطبع، ولذلك فقد شرعت في تخصيص مفكرة صغيرة، وكتبت بها باللغة العربية بعض العبارات والمصطلحات التي عثرت عليها على أحد مواقع الترجمة الخاصة بتلك اللغة، إذ ربما ساعدتني هذه العبارات القليلة على التواصل الجيد مع الناس هناك عند الضرورة،كما قد قمت بتثبيت أحد تطبيقات الترجمة على هاتفي الذكي؛ لكي أتمكن من الترجمة الفورية

لأية كلمة لا أعرف معناها في تلك اللغة إلى اللغة العربية أو العكس حتى لا أضل سبل التواصل هناك..

وحينما أتت اللحظة الحاسمة، أعددت حقيبتي بعد أن قررت ألا أتراجع عن تلك الخطوة مهما ألاقِ في سبيل تحقيقها من صعاب، لم أنس ارتداء قلادة بنفسج الفضية التي أهدتها لي في عيد ميلادي الأخير فقد كنت أشعر براحة كبرى تلفني كلما أحطت عنقي بها، كانت القلادة مزخرفة بنقوش متداخلة في تناغم فني بديع لتتضافر نقوشها مشيرة إلى رمز ما، وربما كلمة بلغة لا أعرفها، وقد أخبرتني بنفسج أنها قد كلفت أحد محال الفضة بصنع تلك القلادة خصيصًا من أجلي بعد أن قامت بتصميم شكلها على ورقة خارجية بنفسها؛ولذلك فلن أجد قلادة تشبهها في أي مكان آخر، وحينما سألتها عن معنى الرمز المحفور عليها، أخبرتني بانه إشارة لكلمة سوف أعلم دلالتها ذات يوم إذا واظبت على ارتدائها ولم أخلعها من رقبتي، والآن بعد أن رأيت بنفسج في المنام أصبحت على يقين أنني سأحتاج تلك القلادة أكثر من أي وقت آخر، وأن وجودها معي خلال رحلتي أمر مهم؛ ولذلك فلم أتردد في ارتدائها بعد أن قمت بلثمها.

حملت حقيبتي ونظرت نظرة أخيرة إلى البيت الذي ضمني بين حجراته لعديد من السنوات، لم أنس أن أنقد صاحب المنزل إيجار عام ونصف قادمين؛ لأنني لم أكن أعلم متى سأعود، ولأضمن الحفاظ على ممتلكاتي لحين عودتي مرة أخرى، على الرغم من أنني لم أكن أعلم في تلك اللحظة هل سأعود إليه مرة أخرى أم أنني في آواخر عهدي به؟ هل سأنجح في رحلتي

مع المجهول؟ أم أنني سأضيع في مكان بعيد، قلت لنفسي بأنني كنت في طريقي لإنهاء حياتي منذ أيام فلا ضير إذًا إن قامرت بأيام قادمة لا حاجة لي بها في تلك الرحلة، أعود أو لا أعود، ليس هذا هو بيت القصيد، ولكن كل ما يهم هو أن أعلم وأتعلم وأن أجد الأجوبة التي أحتاجها.

أغلقت الباب خلفي وجمجمتُ: "إلى نيبال".

***

20

كانت الدال بات تاكاري النيبالية هي أول معالم انغماسي في مجتمع موستانغ وهي أول وجبة تحل بمعدتي حينما وصلت إلى تلك المنطقة، كان الجوع والإرهاق الشديدين يتمكنان مني إلى حد كبير وإذا استمررت على هذه الحال لمدة أكثر فلن أتمكن من متابعة الرحلة بعد كل ما قطعته خلالها من أميال دون توقف، ولذلك فحينما شعرت باقترابي من وجهتي تركت الروائح المميزة تقودني من تلقاء نفسها خاصة أنني كنت قد وصلت إلى آخر محطة لي في تلك الرحلة الشاقة، اكتشفت في النهاية أن تلك الرائحة الشهية التي كانت تشدني إليها تنبعث من مطعم نيبالي بسيط يجلس به عدد من الأفراد الذين يتناولون أطباقًا ساخنة تنبعث منها رائحة التوابل والبهار، لا أعلم ماذا وُضع بها من صنوف الطعام إلا أن ألوانها كانت جذابة تُطعم العين قبل الفم، قررت أن أذوب وسط الآكلين وأجلس على إحدى المناضد الجانبية؛ لكي أتناول وجبة نيبالية ساخنة بديعة مثل رواد المكان، وما إن جلست على أحد الكراسي المتهالكة في إحدى زوايا المطعم المغمورة، حتى اقترب مني رجل عجوز، رفيع القد، متوسط القامة،

تحمله ساقيه بمعجزة إلا أن نشاطه البادي على وجهه يفوق شبابي العاجز عن مقاومة رائحة الطعام، بادرني بحديث لم أفهمه، لا شك أنها تلك هي اللغة التبتية التي لا أعرف منها إلا الكلمات المدونة في مفكرتي، ولذلك فقد أخرجت مفكرتي وقلت له عبر تأتأتي:

– أشعر بالجوع الشديد وسوف أتناول ما تقدمه لي أيًا كان شريطة أن يكون ساخنًا..

قهقه الرجل بصوت عال فور انتهائي من إلقاء العبارة المدونة في المفكرة والتي يبدو أنني تفوهت بها بطريقة خاطئة تمامًا جعلته لا يتمالك نفسه من الضحك، ثم نادى شابة صغيرة يبدو أنها تعمل معه وأخبرها بشيء ما وانصرف من أمامي، كانت الشابة تتحدث الإنجليزية بشكل جيد وهذا ما ساعدني على التواصل معها، فهمت الفتاة طلبي وعرفت أنني جائعة وجديدة في المكان، أخبرتني بأنها ستقدم لي الطبق النيبالي الأشهر لديهم بما أنني ضيفة عندهم، غابت قليلًا ثم عادت تحمل صينية الطعام، كان هذا الطبق عبارة عن الدال بات تاكاري مع فطائر المومو، كان الدال بات تاكاري عبارة عن حساء يوضع فوق الأرز المُنكّه بالكاري والذي يُقدم مع الخضروات المتنوعة والمسلوقة وقد علمت أن الدال بات تاكاري هو من أشهر الوجبات التقليدية في نيبال أما فطائر المومو فقد كانت تشبه فطائر اللحم الصغيرة التي نتناولها في مصر إلا أنها كانت ذات نكهة مميزة لم أتذوقها من قبل وكان اللحم مخلوطًا ببعض الخضراوات، ويبدو أن البهارات لديهم تختلف عن تلك التي نستخدمها وهي السر في ذلك المذاق

الرائع والمختلف، كنت مجهدة من كثرة التنقل من مكان إلى آخر، تناولت طعامي بنهم شديد حتى أنني انهيت الأطباق الممتلئة التي قدمتها لي الشابة منذ قليل عن آخرها، وحينما أتت لترفع الأطباق الفارغة قلت لها كلمة واحدة "حلوى".

فهمت الفتاة أنني أرغب في تناول بعض الحلوى فأحضرت لي حلواهم التقليدية وهي حلوى الجاليبي والتي كانت عبارة عن حلقات ملتفة ومقلية من العجين لها لون ذهبي جذاب يتم سقياها بشراب الزعفران الحلو، كانت حلوى الجاليبي موضوعة فوق خبز السواري الطري فتناولت ما قُدم لي بشهية مفتوحة وإعجاب شديد بالمذاق الجديد، يبدو أن للسفر العديد من الفوائد منها التعرف على صنوف شهية من الأطعمة قادرة على أن تنسيك عناء السفر ومشقة الرحلة، بل كل الصعاب التي واجهتها في حياتك..

تناولت قدحًا من قهوة يختلف مذاقها عن قهوتنا المعتادة ولأن نادلة المطعم كانت تجيد الإنجليزية بدأت في تجاذب أطراف الحديث معها، سألتها في البداية عن كهوف موستانغ السماوية الغامضة وعن كيفية الوصول إليها، فأخبرتني أن العديد من السياح يأتون إلى هنا من أجل الذهاب إلى مملكة لو كما يسميها السكان المحليين أو كهوف موستانغ كما يسميها الغرباء، وأنني لا بد أن أحصل على تصريح من وزارة الثقافة والسياحة والطيران المدني، فعجبت من أنهم لديهم روتين يشبه ذلك الروتين الموجود عندنا، ثم سألتها عن طريقة الذهاب إلى تلك الوزارات الثلاث لكي

أستخرج التصريحات اللازمة منهم، لكنها أخبرتني أنه لا يوجد ثلاث وزارات كما أظن بل إن هذا الاسم هم اسم وزارة واحدة وأنه من السهل عليّ أن أحصل على هذا التصريح إذا كنت برفقة عدد من السياح الذين يذهبون من وقت للآخر إلى منطقة كهوف موستانغ من أجل التسلق أو إجراء بعض الأبحاث أو الأفلام التسجيلية عن تلك المنطقة على وجه التحديد.

صدق من قال أن الغريب أعمى وإن كان بصيرًا فقد كنت أجهل كيفية استخراج التصريح حتى لو كانت طريقة الحصول عليه بسيطة كما تذكر تلك الشابة، كما أنني لا أعلم كيف سأتواصل مع فوج من السياح الذين ينوون الذهاب إلى موستانغ، غير أن النادلة أسعفتني حينما أخبرتني عن وفود فريق أمريكي منذ بضعة أيام إلى المنطقة، وأنهم يقيمون في أحد الموتيلات المحلية التي يؤجرها أحد سكان المنطقة للغرباء كما أطلقت عليهم، طلبت منها أن تدلني على مكان ذلك البيت، كانت الشابة ودودًا معي للغاية حتى أنها استأذنت من رب عملها العجوز وعرضت عليّ أن تصطحبني بنفسها إلى فريق المستكشفين المتجه إلى كهوف موستانغ.

سرت معها بعدما تركت على المنضدة حفنة من الروبيات مقابل ما تناولته من طعام لا يُنسى في ذلك المطعم الصغير، كنت أرغب في لقاء الفريق الأمريكي، وأتمنى قبولهم بانضمامي إليهم ومساعدتي على أخذ التصريح الذي يمكنني من الذهاب إلى كهوف موستانغ برفقتهم، لم أعلم كيف سيحدث هذا ولا كيف سيوافق جمع من الأمريكان على انضمامي

لهم وهم لا يعلمون عني أي شيء، ورغم ذلك كان قلبي يفتيني بأن الأمور سوف تسير بشكل جيد، جددت السير مع الفتاة النيبالية وكلي ثقة مجهولة المصدر بأنني سأقنعهم بقبولي بينهم.

**

19

كانت أبيجيتا -النادلة النيبالية الشابة- هي من يسر لي هذا الجزء من الرحلة فقد اصطحبتني إلى المترل المحلي الذي أخبرتني عنه، ثم توسطت لدى صاحب المترل كي يسمح بإقامتي مع فريق المستكشفين ولم تتركه إلا بعد أن وافق على أن يخصص لي حجرة صغيرة بالمترل بالطابق السفلي، ثم رافقتني لفريق المستكشفين الذين ينوون التوجه إلى كهوف موستانغ فور استخراجهم لتصريح الذهاب إلى هنا، كان الفريق مكونًا من ثلاثةِ رجالٍ وامرأتين، تتفاوت أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين إلى الأربعين ربيعًا، علمت أنهم يقومون بعمل العديد من الرحلات الاستكشافية إلي كهوف موستانغ من وقت للآخر لإجراء بعض الأبحاث الأثرية حول تلك المنطقة، إذ إن هناك العديد من الأسرار التي لم يتوصل إليها العلماء بعد بخصوص تلك الكهوف التي يسعون إلى كشفها من خلال رحلاتهم وأبحاثهم المستمرة، علمت أن أعضاء الفريق قد تعاونوا معًا من قبل على تسجيل فيلم وثائقي مهم عن تلك المنطقة ثم قاموا ببثه عبر قناتهم على موقع يوتيوب الشهير حتى اشترته منهم قناة أمريكية وثائقية بعد أن ذاع صيت

فيلمهم، كان الفريق يرفض وجود أحد لا يعرفه بينهم ويرون أن كل من يحاول التطفل على جمعهم فهو دخيل غير مُرحب به بلا شك، كانوا يتمتعون بخصوصية كبيرة ويتحدثون أحيانًا برموز لا يفهمها سواهم ابتكروها خصيصًا كي يتحدثوا بحرية في حالة وجود غيرهم معهم، ولرغبتهم في الحفاظ على تلك الخصوصية وعدم اختراقها تحت أي ظرف، كان من العسير على فتاة مثلي لا يوجد لديها خبرات مسبقة في تسلق الجبال اللهم سوى تجربة يتيمة قامت بها في صغرها أن تنضم إلى فريق مثلهم بتلك الحيطة والاحترافية المثيرة للإعجاب.

وعلى الرغم من كل تلك المعلومات التي عرفتها عنهم، كان انضمامي لهم هو الأمل الوحيد لي لإتمام رحلتي،كانوا القشة الوحيدة الذي إذا تركتها ضعت وفقدت وسيلة ذهابي إلى وجهتي، ولذلك قررت ألا أتوقف عن المحاولة لعلي أنجح في تحقيق ما أريد، تحدثت معهم أنا وأبيجيتا عن أمر انضمامي إليهم، لم أفاجأ برفضهم فقد كنت أعلمه مسبقًا، ولكن حينما أستمر هذا الرفض رغم إلحاحي الشديد عليهم، لم أجد بُدًّا من إخبارهم بقصتي لعلها تعطيهم السبب الذي يوافقون من أجله على وجودي بينهم، ومن حسن حظي كان الفريق يتحدث باللغة الوحيدة التي أتقنها وهي اللغة الإنجليزية وإلا كنت قد وقعت في مشكلة كبرى لن أستطيع حلها، فلكي أتمكن من إقناع شخص بمرادي لا بد لي من التواصل معه بلغة يفهمني وأفهمه من خلالها حتى أتمكن من التأثير عليه، وكانت معرفتي باللغة الإنجليزية هي أول أرضية ثابتة أقف عليها منذ قررت أن أخبرهم

عما أحمله في جعبتي، قصصت عليهم حكايتي كلها، وأخبرتهم كيف أختفى والداي في ظروف غامضة، وكيف توفت المرأة الوحيدة التي ربتني، وكيف تخلى عني الحبيب الذي وثقت به كل الثقة، أخبرتهم عن المنام الذي ظهرت لي فيه بنفسج، لتخبرني عن كهوف موستانغ وأنه لا بد لي من الوصول إليها كي ألتقي بالصديق الذي أخبرتني عنه جدتي، والذي سوف يساعدني كثيرًا على معرفة الكثير من الحقائق التي أجهلها، أنهيت كلامي كله، وصمتت بعد أن أفرغت كل ما لديّ في آذانهم ولم يعد لديّ ما أقوله.

كنت أعلم أن قصتي قد تبدو غير منطقية لدى البعض منهم إلا أن اللهجة الصادقة التي تحدثت بها معهم جعلتهم يعيدون التفكير في طلبي بالانضمام إليهم خشية أن يكونوا سببًا في عدم إيصالي بالشخص الذي أبحث عنه،تعاطفت معي ماري وسارة كثيرًا وهما المرأتان الوحيدتان بالفريق،ربما لأن النساء يتسمن بالعاطفية الشديدة حتى وإن كن من جنسية مختلفة، فمشاعرهن واحدة،ثم أتاني تعقيب أندرو وهو رئيس الفريق بأن رده النهائي على طلبي قد يحتاج لبعض الوقت والمشاورة مع بقية الفريق لأن مصلحة فريقه أهم لديه من كل الاعتبارات الأخرى، أما مايكل وهو أحد أعضاء الفريق كان يبدو عليه عدم تصديقي بشكل واضح، كما كان استياءه مني وعدم موافقته على وجودي بينهم أمر ظاهر على ملامح وجهه بشكل جليّ، بينما ماثيو وهو العضو الخامس والأخير في الفريق لم تعطني لغة جسده إيحاءً برفض أو بقبول، كان ينظر إليّ طوال الوقت دون أن يُعقب على أي شيء ودون أن يبدو على ملامحه آية تعابير أستطيع منها أن أستنبط موقفه تجاهي..

في مساء نفس اليوم، أخبرني أندرو بموافقة الفريق على مضض بضم اسمي للتصريح الخاص بهم وأنه بصفته رئيس الفريق سوف يسمح لي بأن أكون بصحبتهم شريطة ألا أسأل أي فرد منهم عن طبيعة الأبحاث التي يجرونها، وألا أتدخل في الأمور التي لا تعنيني مهما أرَ أو أسمع منهم، كانت سعادتي فائقة بموافقتهم المشروطة، وأخبرتهم بأنني قد لا استأنف معهم الرحلة بمجرد لقائي بصديق جدتي الذي يجب عليَّ مقابلته عند أحد الكهوف هناك.

كنت ممتنة للغاية لهم ولموافقتهم على وجودي بينهم رغم عدم معرفتهم الكافية لي، لذلك فقد شكرتهم كثيرًا على ما سوف يقدمونه لي من خدمة جليلة لن أنساها ما حييت، ولا أعلم سر ذلك الشعور الذي انتابني وقتها بأن ما حدث معي لم يكن مصادفة وأن هناك يدًا خفية توجهني في رحلتي وهي التي تجعل هالتي مقبولة بين من لا يعرفونني ولا أعرفهم، نظرت إلى السماء وتبسمت لها شاكرة ثم استأذنت منهم وانصرفت، ذهبت لتسلم حجرتي، ودعت أبيجيتا بعد أن شكرتها كثيرًا على مساعدتها لي، عرضت عليها مبلغًا من المال اعترافًا مني بفضلها، لكنها تبسمت في وجهي ثم دفعت يدي الممدودة بالنقود، وانصرفت دون كلمة، شعرت بالحرج الشديد من إهانتي لها غير المقصودة، كنت أود أن أشكرها بطريقة عملية خاصة، وأنها لا تعرفني وظننت أنه ربما تكون مساعدة السياح هنا هي إحدى طرقها لجلب المزيد من النقود بجوار عملها في المطعم، ولكن يبدو أن حساباتي كانت خاطئة وأنه ما زال يوجد بعض

البشر الذين يقدمون المساعدة الحقيقية لغيرهم دون أن ينتظروا مقابلًا لها، ما فعلته أبيجيتا معي ذلك اليوم لم انسه أبدًا حتى الآن كما أنه نسج بيني بينها أولى حبال الصداقة التي ستدوم طويلًا في المستقبل.

أخذت حمامًا دافئًا، واستلقيت فوق الأريكة الموجودة بالحجرة ولم أشعر بنفسي إلا حينما حل المساء، استيقظت على صوت طرقات الباب، كانت أبجيتا قد أتت مرة أخرى لتطمئن عليّ ولتحضر معها طعام العشاء المكون من رغيفين من التشاتاماري باللحم المفروم والبيض وشرائح الطماطم مع الفليفل الأخضر مع حلوى البيدا المصنوعة من الحليب، كان فضل تلك الشابة البسيطة يغمرني وحلاوة طعامها تأسرني سألتها في ذلك الوقت عن معنى اسمها، رفعت أبيجيتا رأسها عاليًا وقالت لي:

- أبيجيتا تعني بلغتنا المرأة المنتصرة..

تبسمت وقلت لها:

- إذن فكل امرأة مكافحة، تستطيع أن تنتصر على مصاعب حياتها وتتخطى كل العواقب، لا بد أن تكون مثلك، أبيجيتا..

***

20

- هل تعلمتِ من قبل كيفية تسلق جبل؟

وجه لي مايكل هذا السؤال وهو يحدجني بنظرات نارية، أجبته قائلة:

- كانت لي تجربة وحيدة مع جبل حوريب في سانت كاترين.

فقال لي والغضب يتقافز من صوته:

- إن الأحجار في موستانغ تتقشر عن الجبال مثلما يتقشر الجلد عن الجسد، ثم تقولين لي إن لكِ تجربة وحيدة مع جبل حوريب، تبًّا لكم أيها العرب لا تفقهون أي شيء وتقحمون أنفسكم فيما ليس لكم به علم!

كانت إهانته صريحة لي وتحمل تنمرًا عنصريًا لكل العرب شديد اللهجة، وودت لو استطعت الرد عليه لكي ألقنه درسًا في الأخلاق وفي كيفية التحدث مع النساء إلا أنني لم أشأ أن يتحول الأمر لمشاجرة بيننا قد أحرم بسببها في النهاية من مرافقتهم، ضغطتُ على أعصابي وقلت له:

- إن تسلق الجبل ليس هدف بالنسبة لي مثلكم، فكل ما في الأمر هو أنني على موعد مع صديق هناك كما أخبرتكم، وحينما ألقاه سوف أتوقف عن متابعة الرحلة معكم، وسأريحكِ من تلك الفتاة العربية التي لا تطيقها.

نظر لي مايكل شذرًا، ولم يعقب على عبارتي الأخيرة،ثم طلب منا أن

نتأهب للرحيل لأن أندرو سوف يأت بالتصريح بعد قليل مما يعني أنه لا حاجة لنا بالبقاء في هذا المنزل أكثر من ذلك، وضبت حقيبة الظهر التي سوف آخذها معي، لم يكن بها الكثير من المتاع فقد قررت أن أترك غالبية أشيائي مع أبيجيتا لحين عودتي حتى تصبح حركتي خفيفة في أثناء رحلة الصعود، رافقتني أبيجيتا ولم تتركني طوال اليوم،ساعدتني على حزم حقائبي وأرشدتني إلى ما يجب عليَّ أن آخذه وما يجب أن أتركه لأنني لن أكون بحاجة إليه بالأعلى، شعرت بقرب أبيجيتا الشديد مني وبدفء حديثها معي على الرغم من أنه لم تمض على معرفتي بها إلا بضعة أيام، علمت منها مقاطع متفرقة من حياتها، فهي فتاه يتيمة فقدت والديها في سن صغير ولا تعرف أحد من عائلتها، تكسب قوت يومها من إعداد الطعام النيبالي وتقديمه للسائحين ثم تبيت في نهاية كل يوم بحجرة صغيرة في المطعم أعدها لها صاحبه، تعاطفت مع قصتها وشعرت أن ظروفها تحمل بعضًا من ظروفي، وأن القدر قد وضعها في طريقي لكي تصبح بُصلتي في تلك البلدة البعيدة التي لا أعرف فيها أحدًا وقام بإلقاء محبتي داخل قلبها حتى تؤنس وحدتي، كنت أفتقد ذلك الشعور منذ مدة طويلة ولذلك فقد شعرت بالسعادة العارمة لأن هناك من يأبه لأمري ومن يساندني.

وأخيرًا انتهيت من إعداد أغراضي، أتى أندرو وهو يحمل التصريح والذي كان يعدُّ إشارة البدء لكي ننطلق نحو كهوف موستانغ، علمت من فريق المستكشفين أن هناك ما يقرب من عشرة آلاف كهف قد نحتت في قلوب الجبال بارتفاع مائة وخمس وخمسين قدمًا، وأن الوديان في تلك المنطقة سوف تكون ضيقة للغاية، وأن تسلق الجبال لن يصبح مهمة يسيرة على الإطلاق، ودعت أبيجيتا بعدما تركت متاعي معها وشكرتها مرة أخيرة هي وصاحب المنزل الذي ضيفني بعد أن نقدته بقية إيجار الحجرة ثم بدأت رحلتي مع الفريق.

في طريق سيرنا إلى الكهوف كنا نلتقي بعدد كبير من السكان المحليين والذين كانوا يرحبون بنا بحفاوة بالغة وحميمية صادقة، لم يكن السكان في تلك المنطقة منغلقين على أنفسهم، وعلى الرغم من اختلاف ملامحنا عن ملامحهم، ومن اختلاف لغتنا التي لا تمكننا من التواصل معهم، فإن طاقة المحبة التي تنبعث منهم كانت تكفي لتشعرنا بالألفة، كان السكان ودودين للغاية، ويبدو أنهم معتادون وجود الزوار المتجولين على أقدامهم مثلنا فقد كان البعض يعرض علينا أن يستضيفنا في منازلهم، ولكننا شكرناهم واعتذرنا لهم لكيلا يسرقنا الوقت.

لم أكن أتحدث مع أحد من الفريق إلا إذا تحدث معي، وعلى الرغم من محاولات سارة أن تتجاذب معي أطراف الحديث، كنت أخشى من أن أرتكب أي حماقة غير مقصودة أثير بها استيائهم فيمنعونني من استئناف السير معهم؛ ولهذا فقد قررت أن أطبق فمي، وأن ألتزم بتعليمات أندرو مهما كلفتني مشقة الصمت لأنني لم أعتد كبح جماح أسئلتي يومًا.

خرج ماثيو المتحفظ عن صمته قليلًا وأخذ يتحدث معي عن لوحات الجص التي رآها في المرة الأخيرة حينما أتى إلى موستانغ وعن رموز الماندلا المنتشرة في العديد من الكهوف وعن النصوص المقدسة المكتوبة بماء الذهب هناك، كما تحدث عن المجسمات التي تستعرض العديد من أوضاع اليوجا والتي أسرته حينما رآها، إلا أنه لم يستطع أن يستأنف رحلته في المرة السابقة بسبب انزلاقه من أحد المرتفعات وسقوطه مما أدى إلى كسر ساقه واضطراره أن يقطع رحلته لكي يجبرها..

قطعنا نهر كالي جانداكي العذب الذي كان قريبًا للغاية من الكهوف، بدأنا موسم التسلق، تذكرت وقتها كلمات بنفسج عن الرحلة التي سوف أقوم بها ذات يوم وحدي حينما كنت عاجزة عن فهم سبب قيامنا برحلة سانت كاترين، سألت نفسي عما إذا كانت بنفسج قد زارت هذا المكان من قبل؟ وكيف كانت تعلم أنني سوف أقوم برحلة أخرى وحدي فيما بعد؟ وهل كانت تعدني إلى مثل هذا اليوم؟ كنت أحاول أن أمنع نفسي من التفكير في أي شيء آخر، أراقب خطواتي حتى لا تنزلق ساقي مثلما حدث لماثيو من قبل، أسير بحذر شديد خشية السقوط، ثم بعد قليل بدأت الكهوف في البزوغ أمامنا واستمرت معنا طوال طريق سيرنا، لكن الفريق لم يتوقف عند أحدهم، استمروا في صعودهم وكأن تلك الكهوف ليست هي المقصودة من رحلتهم لأنهم مروا عليها من قبل، بعد قليل بدأت رياح شديدة في الهبوب، فأخرجنا جميعًا الكنزات الثقيلة التي أعددناها لمثل هذه التغيرات المناخية المفاجئة،استأنفنا رحلة الصعود بينما تتساقط علينا ندفات

من الثلج الحليبي ناصع البياض، وسرعان ما اكتست الكهوف برداء أبيض من الطبيعة الخلابة ليصبح المنظر في غاية الروعة، كنت أتمنى لو توقفنا قليلًا من أجل مراقبة كل هذا الجمال والتمتع بالمنظر الخلاب، ولكني لم أكن أملك حق الاقتراح على الفريق كما أن سرعتهم في التنقل لم تتح لي تأمل الثلج كما أريد، وبعد قليل تكاثر تساقط الثلوج فقرر أندرو أن نتوقف لكي نسترح لبعض الوقت داخل أحد الكهوف ونحتمي به من كثافة الثلج المنهمر حتى يتوقف أو يقل، ثم أشار لنا نحو كهف بعينه، اتجهنا إليه سريعًا وجلسنا بداخله، شعرت بسعادة خبيثة بداخلي لأن تساقط الثلوج أجبر الفريق على التوقف كي أرقب الثلج عن كثب، بدأت سارة في إعداد أكواب من القهوة المُعدة مسبقًا في حافظ ضخم للحرارة تحمله في حقيبة طعام الفريق، قدمت لي كوبًا ساخنًا سارعت بتناوله قبل أن يبرد سريعًا بسبب الصقيع، شعرت وقتها بأن القهوة تصب في كل خلايا جسدي المتجمدة، وتذكرت نفس المشهد القديم حينما كنتِ أتناول الشاي بالحبق مع بنفسج في إحدى استراحات جبل حوريب حينما كانت درجات الحرارة أعلى بكثير من درجة حرارة موستانغ، ورغم ذلك كنت أشعر بالبرد الشديد والتذمر من تلك الرحلة، تبسمت في سري، ولكن مايكل لم يدعني أهنأ كثيرًا بذكرياتي ولا بتأملي لبياض الثلج الذي يغمر كل مكان حولنا، اقترب مني وسألني بحدة:

– لم نر صديقك المزعوم حتى الآن فهل هذا يعني أنك سوف تستكملين معنا الرحلة لنهايتها؟

لم أرد على تساؤله المتهكم وأدرت وجهي للناحية الأخرى، أخذت رشفة أخيرة من كوب قهوتي وكأنني لم أسمع ما قاله لي، قد يكون تجاهل البعض مفيد أحيانًا،تطلعت إلى السماء وطلبت من بنفسج أن تُعجل بموعد لقائي مع صديقها الذي أخبرتني عنه.

***

21

– ما أجمل تلك القلادة التي تحيط بعنقكِ!

أبدت ماري إعجابها الشديد بالقلادة التي أهدتها لي بنفسج، كانت قوية الملاحظة لدرجة أن تلمح وجود القلادة حول رقبتي رغم ارتدائي عدة طبقات من الملابس الثقيلة والتي قد تحجب ما تحتها، أخرجت القلادة من بين طيات ملابسي وقلت لها:

– إنها هدية من جدتي التي حدثتكم عنها.

تطلعت ماري إلى الزخارف المتداخلة في القلادة وقالت:

– وهل تحمل تلك الزخارف دلالة معينة؟

هززت كتفي وقلت لها:

– هل تصدقيني إن قلت لكِ أني آمل أن أعرف دلالات تلك الزخارف من صديق جدتي، وأنني لا أعرف حتى الآن معناها؟

ضحكت ماري وقالت لي:

- في قصتك مع جدتك أستطيع أن أصدق كل شيء!

قطع أندرو حديثنا وأخبرنا بأن الثلج قد توقف عن التساقط وعلينا أن نستعد للمغادرة، جمع كل منا أغراضه وتركنا الكهف الذي آوانا داخل جوفه لبضع الوقت، استأنفنا السير الحثيث مرة أخرى بينما أتطلع إلى الكهوف كثيرة العدد والمترامية حولنا في كل مكان، هل من المعقول أن يكون من قاموا بنحت تلك الكهوف غير معروفين لعالمنا حتى الآن؟ وهل من المعقول أن يكون التاريخ الذي تم فيه نحت تلك الكهوف مجهول أيضًا؟ يبدو أن الكثير من الحضارات القديمة لم تفصح لنا عن كل أسرارها بعد، ولكن كيف للإنسان أن يقوم بنحت كل هذا العدد الكبير جدًّا من الكهوف دون أن يترك أثرًا يخبر الناس عنه؟ ربما يكون من نحت تلك الكهوف ترك أثرًا يدل عليه، ولكن من يبحث عنه لم يعثر عليه بعد أو ربما يبحث في المكان الخاطئ الذي لا يوصله إليه أبدًا!

كان شغف بحث الفريق عن سر "مملكة لو" يتشارك مع شغفي في العثور على صديق بنفسج الذي أخبرتني عنه، لذلك لم يشعر أيٌّ منا بالتعب، غير أني وددت العثور على الشخص الذي قطعت من أجله كل تلك المسافة، مددت يدي حول عنقي لأتحسس قلادة بنفسج حينما مرت بخاطري،ولكنني لم أجدها! كانت قد اختفت فجأة، شعرت بالهلع الشديد، فكيف لم أشعر بها وهي تفارق عنقي؟ وأين تكون قد سقطت يا ترى؟! لم أتخيل فكرة فقد تلك القلادة العزيزة على قلبي وسط تلك الثلوج

والكهوف الموحشة، كان لا بد لي أن أعود لأبحث عنها قبل أن يغطيها الثلج لتضيع مني للأبد، لم تكن المسافة التي فقدت خلالها القلادة طويلة، لأنها كانت حول عنقي في الكهف الذي كنا به حينما رأتها ماري وسألتني عنها أي أني فقدتها في المسافة ما بين الكهف الذي كنا به والنقطة التي أقف عندها الآن، قررت أن أعود سريعًا للبحث عن القلادة،ثم أعود إلى الفريق مرة أخرى فور عثوري عليها، لم أخبر أيا منهم برغبتي في الرجوع للبحث عن شيء مفقود مني، كنت أعلم أنهم لن يتوقفوا من أجلى، وأنهم لن يروا من فقداني لقلادة مهما يعظم شأنها عندي أمرًا ذا نفع بالنسبة لهم، ولذلك فقد صرت أؤخر خطواتي عنهم جميعًا، حتى أصبحت آخر من يسير في صفهم المتقدم إلى الأمام، أخذت بعدها أتقهقر للخلف بينما يتقدم ركبهم للأمام، وحينما أتت اللحظة المناسبة تحركت سريعًا مبتعدة عنهم، عدت من نفس الطريق الذي أتينا منه، دققت النظر بين الحصى والصخور المكسوة بطبقة كثيفة من الثلوج في كل مكان على أمل أن أجد قلادتي المفقودة، أخذت أفتش بيدي عنها في كل شبر أخطوه، تسللت دموعي رغمًا عني غير مصدقة فقداني لقلادة بنفسج، تتبعت آثار تشبه الأقدام علني أسلك نفس الطريق قبل أن تمحوه الثلوج أو الرياح، وبعد فترة من البحث وجدتها، مختفية بين الثلوج والحجارة، أسرعت بالتقاطها من على الأرض ومسحتها بعناية ثم ارتديتها من جديد،هممت بالرجوع مرة أخرى لأعاود اللحاق بالفريق، ولكن آثار الأقدام كانت قد مُحيت تمامًا، بما يعني أنني يجب أن أعتمد على ذاكرتي إذا أردت أن أسلك نفس الطريق الذي أتيت منه،كنت أكاد أتجمد من البرد، أقف وحيدة وسط الكهوف التي

تفتح أفواهها للبرد والظّلمة والثلوج، شعرت أن هذا المكان قد يكون مكان جيد للموت، تذكرت في تلك اللحظة العديد من الأفلام التي شاهدها من قبل والتي تحكي عن تسلق الثلوج وكيف يموت بعض المتسلقين متجمدين من البرد في كثير من الأحيان حينما يضلون الطريق أو يفقدون صحبتهم أو تنفذ مؤنتهم، لم أكن أعلم أن بنفسج تجعلني أقطع آلاف الأميال من أجل أن أموت متجمدة في هذا المكان البعيد، كنت سأقدم على الموت بأية حال في مصر دون كل تلك المشقة، نهاية هنا أو نهاية هناك، لا يهم المكان، ما دامت النهاية واحدة.

وإذا بي ألمح قبس من نور يتوهج من الطريق المعاكس للطريق الذي أقف فيه، دفعني خيط من فضول للسير في اتجاه النور عله يدلني على طريق العودة للفريق مرة أخرى، مشيت بخُطى متلهفة لكي أكتشف مصدره، وحينما اقتربت رأيت كهفين متجاورين، أخذت أتأمل المكان من حولي والذي كان مألوفًا لي للغاية كأنني قد زرته من قبل أو كأنني كنت فيه منذ قليل، وفجأة قفزت في عقلي الصورة الذهنية للمكان الذي التقيت فيه ببنفسج في المنام، يا الله! إن هذا المكان يشبهه إلى حد كبير، أيكون هو؟ هل فقدت قلادتي لتدلني على هذا الطريق الذي لم نمر عليه من قبل؟

ثم رأيته يخرج من أحد الكهفين، رزين رصين، طاعن في السن، حليق الذقن، لا يوجد أثر لشعرة واحدة في رأسه، يرتدي ما يشبه العباءة المشدودة من عند الخصر بحزام قرمزي كلون العباءة، يتوكأ بسنوات

عمره الطاعنة على عصا خشبية، ويسير في تمهل وتؤدة، نظر إليَّ وقال لي بلغة إنجليزية ذات لكنة هندية مميزة:

-كيف حالكُ يا هالي؟

حملقت إليه، عاجزة عن تصديق أنني أخيرًا قد عثرت عليه، أو أنه من عثر عليَّ، اليوم ألتقي برجل من لحم ودم، يجمعني به موعد مجهول، يعرف اسمي دون أن أعرف عنه شيء، في مكان بعيد عن كل شيء، ألجمت الدهشة لساني، لم أجد ما أقوله بينما أستمر الرجل في التحدث وقال لي:

- أدعى اللاما كابيير المعلم الخاص بكِ، فنحن على موعد مسبق، هل نسيت يا عزيزتي؟

كلمات اللغة كلها لا تسعفني عن وصف شعوري الهائل إزاء المفاجأة الكبرى التي تلقيتها حينها، طال صمتي، وهربت الكلمات من حلقي، فلم أستطع أن أنطق ببنت شفة، يبدو أن الرحلة لم تكن قد بدأت بعد، وأن هذا هو اليوم الأول لي فيها، اليوم الذي التقيت فيه باللاما كابيير.

***

22

في اليوم الأول من وصولي إلى المكان الذي راودني في المنام والذي جمعتني به بنفسج بعد طول شتات،قام اللاما كابيير بأخذ الحقيبة التي أحملها والتي تضم بعض الملابس الثقيلة وبعض الطعام المحفوظ الذي جلبته معي ليعينني على تحمل جوع الطريق، وحاسوبي المتنقل الصغير وكذلك هاتفي الشخصي وساعة يدي، وبعض الأوراق الهامة والنقود،ثم أخبرني بأنني يجب عليَّ في تلك المدة التي سوف أقضيها معه أن أتخلص من كل ما من شأنه أن يشتت ذهني، أو يمنعني من الانفصال عن العالم المادي الذي أتيت منه.

لم أملك إلا الإذعان لما طلبه مني اللاما كابيير ولكنني سألته عن الطريقة التي سأعرف بها التوقيت والتاريخ جاءني رده بسيطًا غريبًا، فقد طلب مني أن أرقب حركة الشمس في كبد السماء وأن أحيا يومي ببساطة وأعتمد على الطبيعة التي تحيط بي وأن أكف عن تعاطي تلك التكنولوجيا التي تحجم من قدرات الإنسان على استكشاف ما حوله،ثم أعطاني رداءين، أسماهما رداء الشمس ورداء القمر، كان رداء الشمس بلون المارون الذي

يميل إلي البني، وكان رداء القمر بلون قشدة الحليب، وطلب مني أن أرتدي الرداء الماروني حينما أستيقظ في الصباح، وأن أبدله بالرداء الآخر حينما يحل المساء، كانت الأردية التي أعطاني إياها خفيفة ولا تتناسب مع برودة الجو، فأخذتها ودخلت إلي الكهف المجاور لكهف اللاما والذي أخبرني بأنه المنزل الذي سأقيم به حتى انتهاء فترة إقامتي معه، كان كهفي أو منزلي كما أسماه اللاما يشبه منزله إلي حد كبير غير أنه مساحته أصغر، وجدت غطاء خفيف بني اللون موضوع في أحد الأركان، وإناء كبير به بعض الماء، وشمعتين من الحجم المتوسط علمت أنني سأستخدمها لإنارة الكهف في المساء، كان للكهف ستارة داخلية فأسدلتها لتحجبني عن الخارج، وشرعت في الاغتسال وإبدال ثيابي، لم يكن معي ما أستدل به على الوقت، ولكنني خمنت أننا نقترب من العشاء، مما يعني أنه لا بد لي من أرتدي الثوب الأبيض، بدلت ثيابي،وارتديت الملابس الجديدة، كان الثوب ما بين العباءة والفستان، فضفاضًا، مريحًا، لا يشف، ولا يصف، تفوح منه رائحة زكية تشبه المسك ولكنها ليست بمسك أشعرتني براحة كبيرة حينما اشتممتها، كان الجو قد تبدل تمامًا، توقف تساقط الثلج ولم أعد أشعر بالبرودة التي كانت على وشك أن تفتك بي منذ قليل، ولا أعلم هل يتقلب الطقس بهذه السرعة في موستانغ أم أن المنطقة التي كنت فيها مع اللاما يختلف فيها التوقيت والزمن والطقس أيضًا..

وما إن انتهيت من ارتداء ثوب القمر، وهممت بالتكور في أحد جوانب الكهف،حتى سمعت ما يشبه الطرق على باب كهفي، هببت واقفة من مكاني وخرجت لأجد اللاما كابيير في انتظاري، ويبدو أنه كان يرغب في أن أبتدئ أول دروسي في عالم موستانغ الجديد.

***

23

حينما لبيت نداء اللاما كابيير،أشار لي بأن أتبعه لكهفه، وحينما دخلنا، طلب مني أن أقترب منه قليلًا، فعلت ما أراد، مس بيده جبهتي وقال لي:

– لن أرهقكِ في يومكِ الأول هنا، ولكنني سأطلب منك أن تجلسي في وضعية مريحة، ثم تقومين بإغماض عينيكِ قليلًا وتتيحين لنفسكِ الفرصة لتذكر كل ما مررتِ به خلال حياتك وصولًا إلى تلك النقطة التي التقيتِ فيها بي، حاولي أن تفندي أفكاركِ وتنظميها، بحيث لا تتداخل أكثر من فكرة مع نظيرتها، اهتمي بكل فكرة منفردة، وأطلقي عليها اسمًا ترينه مناسبًا لها، وحينما تحددين أفكارك الرئيسية بداخلك، افتحي عينيكِ مرة أخرى.

أومأت برأسي إيجابًا، افترشت أرضية كهف اللاما وأغمضت عيني، تركت لسيل أفكاري المتلاطم حرية الانجراف، وأخذت أتذكر كل ما مر بحياتي، كانت أفكاري تنصب حول أربعة أشخاص، بنفسج وآدم وفؤاد وجميلة، فأنا أتوق إلى رؤية بنفسج، وأخشى من المصير الذي ذهب إليه

فؤاد وجميلة، وأشعر بالضيق الشديد من آدم، لم يكن يرد بذهني أفكار بقدر ما يرد به مشاعر متضاربة، وقد حاولت السيطرة عليها لكنني لم أفلح، وحينما استقرت مشاعري على تلك النقاط الثلاث، شعرت أنني أقف عند أحد منعطفات النفس المهمة التي لا تراودني فيها أي أفكار إضافية، قررت أن اطلق على كل فكرة مرت بخاطري لونًا يناسبها، أطلقت على أفكاري تجاه بنفسج اللون الأبيض، أطلقت على أفكاري تجاه جميلة وفؤاد اللون الأصفر،أطلقت على أفكاري تجاه آدم اللون الرصاصي، كنت وقتها على شفا شعور عارم بالاسترخاء الجميل، وحينما حاولت التركيز مرة أخرى لكي أفتح الباب لطيف من الأفكار الجديدة لعلها تزورني، لم أجد بداخلي شيئًا جديدًا، فتحت عيني، وقبل أن أفتح فمي بكلمة لأخبر اللاما بما توصلت إليه، قال لي:

- يجب أن تتنفسي..

لم أفهم مقصده في البداية، فكل ما أعلمه عن التنفس هو أنه عملية فسيولوجية لا إرادية تمارسها كل المخلوقات بما فيها البشر في صحوها ومنامها دون أن يكون لنا هيمنة عليها، استأنف اللاما حديثه قائلًا:

- إن الإنسان يتنفس قرابة العشرين ألف مرة في اليوم ما بين شهيق وزفير، أي إن هبة الحياة تُمنح له عشرين ألف مرة خلال اليوم الواحد، ولكن التنفس الذي يكون عبارة عن صدر وكتفين يتحركان حينما نأخذ بعض الهواء العميق بداخلنا لا أسميه تنفسًا.

قلت له:

- إذًا علمني يا سيدي كيف أتنفس بالطريقة الصحيحة التي تعنيها.

رد عليّ اللاما قائلًا:

- إن النفس المتواضع الذي يأخذه الإنسان لا يملأ إلا مقدارًا ضئيلًا للغاية من رئتيه، وما أقصده أن التنفس الحقيقي يبدأ حينما يملأ الإنسان كامل صدره بالهواء، التنفس الذي أقصده هو الذي يجعل كل الأضلع تتسع عن آخرها لتستقبل الهواء بكل ما فيها فيغمر كل خلايا الجسد ويخلق حالة من الاسترخاء والهدوء لدى الإنسان بعدها، هكذا يكون التنفس الصحيح، يقلل من التوتر والخوف ويحسّن من وظائف الجسد الحسية ومن حالتنا النفسية إذا داومنا عليه بانتظام أو لجأنا إليه في أوقات القلق والرهبة.

قلت له:

- وكيف أستطيع أن أتنفس بتلك الطريقة؟

رد عليّ اللاما قائلًا:

- راقبيني جيدًا.

أغمض اللاما عينيه، ثم أخذ نفسًا عميقا لعدد من الثوان أطول بكثير من التوقيت المعتاد الذي نأخذ فيه أنفاسنا القصيرة، ملأ الهواء جسد اللاما حتى أن بطنه تمددت قليلًا إلى الأمام، ثم حبس اللاما الهواء داخله لبضع ثوان، ثم ترك هواء الزفير بعدها يتسلل من أنفه ببطء شديد في عدد من الثوان أطول من العدد المعتاد أيضًا.

عاد اللاما ليفتح عينيه مرة أخرى ثم قال لي:

- دورك..

حاولت أن أتبع خطوات اللاما في الطريقة التي كان يتنفس بها فأخذت نفسا عميقًا حتى تمددت بطني للأمام، ثم حبست الهواء بداخلي قليلًا، شعرت بقليل من الدوار، إلا أنني تابعت إخراج الزفير ببطء شديد، ثم فتحت عينيَّ..

فقال لي اللاما:

- استمري حتى أطلب منك التوقف..

فقلت له:

- ولكني أشعر بالقليل من الدوار..

فرد على قائلًا:

- لا عليك، البعض يشعر بدوار في بداية ممارسته لعملية التنفس الصحيح إلى أن يعتاد الأمر فيزول الدوار.

أغمضتُ عيني، وبدأت في التنفس بالطريقة الجديدة التي علمني إياها اللاما، وللمرة الأولى في حياتي أشعر بأن كل ما في يتنفس وينبض للحياة.

***

24

- القمر، سوف يكون هو رفيقكِ في تلك الأمسية.

لم أفهم كيف سيكون القمر رفيقي، ولكنني علمت بعدها بقليل أنني بصدد تمرين جديد يجب أن أركز نظري فيه طوال الليل إلى القمر، طلب مني اللاما كابيير ألا أحاول أن أصبغ القمر بأي معنى قد يتبادر إلى ذهني، وأن أهرب من أي فكرة تراودني أو تشدني لمكان آخر، وأن أستجمع كل قوايّ وتركيزي، لأدقق النظر إليه من جديد إذا ما شردتُ بأفكاري بعيدًا عنه، وألا أسمح للخيالات أن تقودني في اتجاه يبعدني كثيرًا عن الهدف الثابت الذي حدده لي اللاما، فهو نقطة تركيزي الرئيسية، ويجب ألا أسمح لأي شخص يخطر ببالي أو أية فكرة تراودني أن تبعدني عن هذا الرفيق الفضي المستدير.

لم أكن قد خضت من قبل تجربة تأمل طويلة تمتد إلى ساعات طويلة، ولم أعلم كيف سأقضي ليلًا كاملًا وأنا جالسة أمام كهفين، أحدق إلى قمر سابح في سماء الظلمة وسط عدد لا متناهٍ من النجوم المتيقظة، هل جننت

لكي أتبع منامًا وأتركه يأخذني إلى تلك الأرض البعيدة؟ وهل بلغ مني الحمق أن أجلس وحيدة، أنظر إلى قمر التبت، في حين أن نفس القمر كنت أنظر إليه من شرفة بيتنا كل مساء؟ هل هذا هو الدرس الذي بعثتني إليه بنفسج؟ وجدت أنني قد انجرفت بعيدة بأفكاري عن القمر الذي يجب أن أوليه كله اهتمامي، سحبت نفسي سريعًا من كل تلك التساؤلات، وعدت لأتأمل القمر من جديد، ولكنني في تلك المرة تذكرت فؤاد وجميلة وقصتهما المحيرة التي جعلت آدم يتخلى عني، ترى كيف سيكون رد فعل آدم حينما يعرف أنني قد أتيت إلى هنا حينما ظهرت لي بنفسج في المنام؟ هل سيظنني مجنونة؟

مرة أخرى يسحبني مد أفكاري بعيدًا عن شاطئ القمر، وأنسى أن أحكم تفكيري وأصبه حول هذا الرفيق، حسنًا يا هالي ركزي مرة أخرى، يجب ألا تحيدي بعيدًا عن القمر، ويجب أن تعزلي نفسك عن أية فكرة أخرى كما قال اللاما، أه لو أن بنفسج معي، كانت لتسعد للغاية بتلك الرحلة المأهولة بالغموض فهي مخلوقة منه وتتحدث عنه طوال الوقت، خُيل لي أن القمر الغاضب يطالعني من أعلى وشعرت به يحادثني ويخبرني بأنني يجب أن أترك كل أفكاري على بوابته!

كان الظلام يمد أصابيعه المعتمة على كل ما حولي، لولا قليل من ضوء يبعثره هذا الرفيق الذي يتسيد اللآلئ التي تتقاسم معه سكنى السماء، وإلا ما كنت تمكنت من رؤية شيء على الإطلاق، ماذا لو هاجمني حيوان جبلي مفترس في تلك المنطقة الخالية من البشر؟ أو ظهرت لي حية من بين هذه الصخور؟ ماذا سأفعل وقتها؟ وكيف سأحمي نفسي؟

عجزت في أول ليلة لي عن التركيز حول القمر كما طلب مني اللاما، كنت أشعر بالملل الشديد، ويبدو أنه لا فائدة من عقلي الذي لا يتوقف عن فعل أي شيء عدا إتقان المهمة المطلوبة منه، ساعديني يا بنفسج كي أعزل نفسي عن كل الأفكار أرجوكِ، ساعديني كي أخلع نعلي الدنيا عند الوادي المقدس..

***

25

مرت الساعة تلو الساعة وأنا أحاول عبثًا أن أتغلب على أفكاري، لكن الغلبة في النهاية كانت لها، لم أنجح في أن أبقي ذهني صافيًا كما طلب مني اللاما كابيير ولا أن أركز نظري فقط إلى القمر دون أن أدع آية فكرة تحول بيني وبينه، انتابتني رغبة شديدة في النوم فلم أعتد أن أظل متيقظة كل تلك المدة دون أن أفعل شيئًا أشغل به وقتي، وكانت مهمة النظر للأعلى إلى قمر المساء مهمة سَئِمة للغاية.

بدأت حلكة الليل في الانقشاع رويدًا، ثم بدأ صدى رفرفة أجنحة بعض الطيور يتناهى إلى مسامعي، هل من المعقول أن تمر عليَّ كل تلك الساعات؟ يا الله!

متى سيأتي اللاما كابيير ليأذن لي بالعودة إلى كهفي لكي أنعم بقليل من النوم،ويبدو أن اللاما قد قرأ أفكاري عن بعد فقد أطل عليَّ بوجهه الحليق من كهفه، وقال لي:

- كفاكِ اليوم، فلنستأنف في الغد، فقليل من النوم يلزمكِ، كي تبدئي درس الصباح.

قلت له:

- ولكن ما الهدف من كل ما أفعله؟ لقد مللت منذ يومي الأول.

أجابني قائلًا:

- لا يجب على الإنسان أن ينتظر حدوث المعجزة منذ اليوم الأول، فنحن لا نتعلم اللغة بمجرد رؤية الأحرف، ولا نتعلم العزف بمجرد امتلاك الناي، كذلك الجروح لا تندمل بمجرد وضع الدواء.

***

26

عدت منهكة للغاية إلى الكهف، أشعر بالرغبة الشديدة في النوم، آويت إلى إحدى زوايا الكهف وتدثرت بالغطاء، ثم سرعان ما رحتُ في نوم عميق، لم يوقظني منه إلا صوت منبعث من داخلي يأمرني بالاستيقاظ، فتحت عيني بصعوبة وأنا أتساءل:هل كنت أحلم، أم أن ساعتي البيولوجية تأمرني بالنهوض أم أن هناك قوة أكبر مني دفعتني للاستيقاظ رغم حاجتي لمزيد من النوم؟، كنت أشعر بالإرهاق الشديد، لأنني لم آخذ قسطًا كافيًا من النوم بعد،ولكنني كنت على موعد جديد مع اللاما كابيير الذي أخبرني بأنه سيعطيني درسًا آخر هذا الصباح، ربما يكون قد استخدم قوة خارقة لإيقاظي، أو ربما يكون شعوري بالالتزام تجاه الدرس الجديد هو ما أيقظني،فقد كان فضولي لمعرفة الهدف من تلك الرحلة التي جعلتني بنفسج أخوضها كبيرًا، كما أنني كنت أرغب في معرفة الشيء الذي لم تستطع هي أن تعلمني إياه وسيعلمنيه اللاما كابيير كما أخبرتني في المنام، كان إناء الماء ممتلئًا رغم نضوبه بالأمس حينما اغتسلت منه، لم أعر هذا الأمر اهتمامًا، فقد بدأت اعتاد غرائبيات الأحداث، اغتسلت ثم ارتديت رداء الشمس

الماروني، والذي طلب مني اللاما أن ارتديه بالنهار،كنت أشعر بالجوع الشديد فأنا لم آكل شيئًا منذ قدمت إلى هنا، ولكن أين الطعام في هذا المكان المقفر؟ وهل يحتفظ اللاما بمؤن كافية لمكوثنا هنا؟

غادرت الكهف، ووجدت اللاما يحمل عصاه الصغيرة في يده، ويخط بها على التراب رموزًا تشبه تلك الرموز التي تزين قلادتي والتي أحفظها عن ظهر قلب، وقال لي:

– اليوم سوف تتسلمين المانترا الخاصة بك.

خُيل إليّ أن اللاما كابيير لن يكف عن التحدث بالألغاز ولذلك فقد سألته عن معنى المانترا، أجابني قائلًا:

– المانترا هي تعويذتك المكتوبة باسمك في جبال الهيمالايا.

ولأني ما زلت لا أفهم، فلم يكن عليّ سوى مجاراته كي أفهم منه ما يقصد فتفوه بكلمة واحدة وقال:

– القدير!

قلت له:

– إذًا فالقدير هي المانترا التي تتحدث عنها؟

فأشار إلى القلادة التي أرتديها حول رقبتي وقال لي:

– القدير باللغة السنسكريتية القديمة تُكتب بنفس الطريقة المنقوشة على قلادتكِ التي لم تخلعيها من عنقك، وهي المانترا التي سوف ترددينها

طوال اليوم حتى حلول المساء،والتي كنتِ تحملينها معكِ طوال الوقت دون أن تعلمي عنها.

يبدو أن بنفسج كانت قد أعدت كل شيء من أجل تلك الرحلة، حتى المانترا التي سأرددها كانت تعلمها قبلي، لكنها لم ترد لي كشف معناها إلا حينما آتي إلى هنا، ولكن كيف علم اللاما كابيير بكل ذلك؟ وكيف كانت الكلمة التي أحملها معي طوال الوقت هي المانترا المقدر لي استخدامها هنا، وليس في مكان آخر؟ كيف علمت بنفسج بكل هذه الأمور؟ وكيف علم اللاما كابيير أيضًا؟ هل كان بينهما اتفاق مسبق لا أعلم به؟ حاولت ألا أواجه حقيقة أنني سأظل نهارا كاملًا أردد كلمة واحدة لا ثان لها دون أن أعلم المغزى من وراء ذلك فسألته قائلة:

– من القدير؟

فأجابني:

– القدير هو من سواني وسواكِ؟

كان القدير الذي يعنيه اللاما هو الله الذي نعرفه نحن، تذكرت أن بنفسج قالت لي ذات مرة حينما سألتها عن ماهية الله أنه ليس كمثله شيء، وأن هذا الرد قد جاء بالنسبة إليّ مبهمًا وغامضًا وقتها وبأنني أعجز عن الإيمان بالأشياء التي لا أراها بأم عيني فقلت له:

– هل القدير ليس مثله شيء؟

تبسم اللاما وقال لي قبل أن تبدئي درس الصباح يجب عليكِ أن تعرفين أمرًا مهمًا للغاية، قد يطول حديثي قليلًا عن هذا الأمر، ولكن لكي تكملي معي هنا، يجب أن تعلمينه جيدًا، فهل أنتِ مستعدة للإنصات لي؟

فقلت له:

– لقد حيرني هذا التساؤل كثيرًا وربما أجد إجابته لديك يا سيدي.

فاعتدل اللاما كابيير في جلسته وانطلقت الكلمات من فمه:

– الكون الذي يحيط بنا ليس كما يبدو إلينا بحواسنا المتواضعة، وكل المظاهر التي تتجلى لنا فيه،ما هي إلا أدوات تستخدمها قوة كبيرة وتتحكم فيها، بل تسيطر عليها، وحينما يصل الإنسان إلى معرفة أن حقيقة الأشياء تكمن في اتصالنا بكل ما يحيط بنا لكي توصلنا في النهاية إلى تلك القوة الكبيرة التي أتحدث عنها والتي قد نعجز عن إدراكها بحواسنا المحدودة إلا من خلال استكشاف تلك الأدوات المحيطة بنا والتعامل معها، فإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى فهم تلك النقطة، لن يضيره وقتها رؤية تلك القوة، أو ملامسة هذا النور ما دام أنه يستطيع أن يتصل به ويستشعره بروحه أولًا أو من خلال مظاهره المتجلية في كل مكان، وما دام الإنسان يرى من ربه معنى كبيرًا يحيا في كنفه، وأن هذا المعنى يحيطه بعنايته ويرعاه في رحلته، ويكون معه متى لجأ إليه، هذه الإدراك سيورث بداخلكِ وبداخل كل فرد الطمأنينة والحبور، ولن يستطيع أن يفهم هذا الأمر إلا صاحب النظرة الروحية، لأن النظرة المادية المجردة للأشياء وحدها لا تكفي، فصاحب النظرة الروحية ستقوده روحه إلى معرفة الكون ومعرفة رب الكون، وهذا

أعمق إدراك لمخلوق في رحلة بحثه عن القدير، ووقتها فقط سيكتشف الإنسان اتصاله، بل ربما قرابته لكل البشر حتى الذين لا يعرف أسماءهم، وأنه مخلوق يحمل بداخله النار والنور، الطين والماء، الأرض والسماء، الجنة والنار.

كان المعنى الذي يحاول أن يوصله لي اللاما جديدًا ومبهما: فقلت له:

– وكيف أكون متصلة بما حولي؟

فأجابني قائلًا:

– أنتِ متصلة بكل الأشياء بالفعل سواء أدركتِ ذلك أم لا، لأن عينيكِ تريان كل عناصر الكون التي خلقها القدير، ترحبين بسبائك القمر الفضية حينما تتجلى في المساء على أرضنا التي تسيرين فوقها دون أن تستشعري أن هناك جاذبية تساعدكِ على الثبات فوقها، ترحبين بالشمس التي تلقي التحية على جسدكِ الحي الباحث عن الضياء والدفء.

قلت له:

– ولكنني لا أشعر بأنني متصلة بالكون يا سيدي!

أجابني قائلًا:

– إذا رفض الإنسان الاعتراف باتصاله بالكون الذي هو أداة وصوله إلي القدير، فإنه يعقد الأمور على نفسه، فهو لن يتمكن من الانفصال عن هذا الكون، ولن يتمكن من إيقاف القوانين التي تُسّيره وتُسيّر الكون رغمًا عنه سواء قبل هذا الأمر أم رفضه، وذلك لأن للكون ناموسًا دقيقًا للغاية،

تسري قواعده على الجميع بلا استثناء، ومن الأفضل لنا أن نقبلها ونُسلم بها، لأننا لن نستطيع إيقاف سريانها علينا حتى لو رفضناها، ولن نتمكن من الخروج عنها إذا كفرنا بها، وفي تلك الحالة يكون رفض الإنسان لشيء لا يمكنه إيقافه حائلًا ضخمًا يمنعه من البحث عن الحقيقة التي سوف يجدها إذا سعى لكشفها مثلما فعلتِ أنتِ حينما قررتِ تلبية نداء المعرفة.

قلت له:

– لكنني لم أُلبِّ نداء المعرفة، لقد أتيت هنا مدفوعة برؤية!

فأجابني قائلًا:

– لا يوجد ما هو أسوأ من فقر الروح حتى وإن أمتلأ الجيب، ومن يبحث عن اللذات لن يصل إلى الغايات، ما زال أمامكِ بعض الوقت حتى تفهمي.

أنهى اللاما جملته الأخيرة وأنصرف إلى كهفه،بعد أن تركني أفكر في كلماته، وأردد كلمة القدير طوال نهاري الأول في جبال الهيمالايا.

***

27

" القدير، القدير، القدير، القدير، القدير، القدير...."

إلى ما لا نهاية القدير، مضى على مكوثي في هذا المكان المقفر قرابة الأسبوعين دون أن يتغير شيء، يبدأ يومي بتناول كسرة خبز، ثم ترديد كلمة القدير، دون أن أستشعر معنى بداخلي، وحينما ينقضي النهار، ويزورني الليل، أبدل ثيابي وأتأمل وجه القمر الصامت الذي لا يريد أن يخبرني إلي أين سيقودني، كنت في البداية أحسب التاريخ حتى لا أفقد الشعرة الرفيعة التي تصلني بالتقويم الزمني الذي أنتمي إليه، فعلى الأقل يجب أن أعرف اليوم الذي أنا فيه، ولكن مع تواتر الأيام وتشابهها تداخل على التقويم ولم أعد أحسب شيئًا مثلما كنت أفعل من قبل، وصرت أعرف أن اليوم الجديد قد جاء حينما أرى الشمس، وحينما يحل المساء وألمح القمر والنجوم أعرف أن ليلًا جديدًا قد هَلّ، أعرف بداية الشهر وأوسطه ونهايته من وجه القمر وتقلباته التي يريها لنا، فكرت عدة مرات أن أرحل عن هذا المكان الذي لم يضف إليّ جديدًا منذ حللت به، غير أنني

لم أكن بالجرأة الكافية التي تمكنني من اتخاذ تلك الخطوة، فما زال هناك شيء بداخلي يرغب في الوصول، كنت دومًا على أمل أن أصل في يوم ما للحقيقة، ويبدو أن اللاما قد أدرك الصراع الذي يعتمل بداخلي فقد قال لي هذا الصباح:

- يجب على الإنسان معرفة الشخص الآخر الذي يسكن داخله وألا يجعل نفسه الضعيفة تعوقه عن اكتشافه.

فكرت في الجملة التي قالها لي اللاما، وظللت لمدة غير قصيرة أحاول تفسيرها، هل يملك اللاما كابيير الحق في أن يتهم نفسي بالضعف؟ ولماذا يراها من الهشاشة التي تعجز عن استيعاب ما هي فيه..

قررت أن أدع التفكير في نفسي الضعيفة جانبًا وأن أركز بشكل أفضل على الكلمة المطلوب مني ترديدها، جلست في وضعية مريحة بحيث يكون عمودي الفقري مستقيمًا حتى لا يؤلمني ثم أغمضت عينيّ، وأخذت نفسًا عميقًا وبدأ داخلي في الترديد من جديد:

- القدير..القدير..القدير.

في هذا اليوم قررت أن أتجاهل أية فكرة تطرأ ببالي وأن أدعها تطفو إلى سطح عقلي مثل فقاعة هواء ثم أدعها تتلاشى دون أن أقلبها في رأسي أو أطيل التفكير فيها مثلما كنت أفعل عادة، قررت أن أتجاهل أي مشاهدات ترتسم في ذهني، وألا أحاول استعادة الذكريات الأليمة التي تعوقني عن الاستغراق فيما أنا فيه، حاولت أن أسيطر على حواسي وألا أدقق فيما حولي من أصوات مهما حدث، ركزت على تنفسي، وشعرت أنني كلما

ركزت على تنفسي أكثر كلما استطاع ذهني أن يصفو بشكل أكبر من ذي قبل، لا أعلم كم مضى على من الوقت وأنا على تلك الحالة، كل ما أعلمه هو أنني شعرت باللاما كابيير يقول لي:

- اليوم هو أول يوم لكِ هنا

فتحت عينيّ ونظرتُ إليه مندهشة وقلت له:

- ولكنني أمكث هنا منذ مدة طويلة..

فوجئت أن الظلام يغمر المكان،رغم أنني كنت قد بدأت تمريني اليومي منذ الصباح الباكر، يبدو أنني قد استغرقت في ترديد المانترا لأول مرة بكامل روحي حتى أنني لم أشعر بمضي الوقت ولم يتسلل إليّ الملل أو الرتابة مثل كل يوم، لأول مرة أشعر بالنجاح منذ فترة طويلة، اليوم فقط تمكنت من تطبيق ما طَلب مني مثلما طُلب مني بالضبط دون أن أحيد عنه، اليوم كما قال اللاما كابيير هو أول يوم حقيقي لي في الطريق المرسوم لي في تلك الرحلة..

***

28

– يقضي الإنسان دهرًا في تأليه نفسه، وفي إنكار من حوله، يظن أنه يجب أن يكون المُدلّل الأول، وأن كل شيء في حياته منه وإليه يعود، وفي تلك المرحلة يبدو له من حوله مجرد أدوات لتحقيق رغباته، وأن كل ما عدا ذلك هو مجرد ضباب، وهذا هو أكبر قيد يمكن أن يربط الإنسان به نفسه.

كانت تلك الكلمات هي التي ابتدأ بها اللاما كابيير حديثًا جديدًا يجمعنا معًا للمرة الثانية منذ أن أتيت إلي هنا، لم أفهم معنى أن يقيد الإنسان نفسه بنفسه فقلت له:

– وكيف يتحرر الإنسان من قيده يا سيدي؟

فأجابني قائلًا:

– لكي يتحرر الإنسان عليه أن يكف عن تأليه نفسه،وأن يبذل أطماعه تحت قدميّ الإيثار، وأن يعطي بدلًا من أن يأخذ، وأن يتوقف عن التفكير في ذاته فقط، ففي كل خطوة يسيرها الإنسان يجب عليه أن يفكر

فيمن حوله،لأننا لا نعيش وحدنا،بل نحن لا نكون وحدنا إلا داخل القبور، وفي تلك اللحظة هناك متسع من الوقت كي يفكر الإنسان في نفسه فقط.

قلت له:

– وما الذي يجعل الإنسان يفكر في نفسه فقط؟

اتكأ اللاما كابيير على صخرة مجاورة له وقال لي:

– المادة هي السبب في شقاء الإنسان على الأرض، ورغم أنه يعلم تلك الحقيقة فهو لا يتوقف عن السعي نحوها طوال عمره، فكل الماديات تحجب الإنسان عن معرفة حقيقة روحه، وحينما يحبس الإنسان روحه داخل وعاء المادة الضيق، فإنه أول من يشتكي، لأنه يمنع تلك الروح عن إدراك كنهها، ويعوقها عن الوصول إلى مصدرها، فلا يمكن للإنسان أن يُقصر حياته إلى ما لا نهاية على المادة فقط، جاعلًا منها المحرك الأول له، حارمًا نفسه من لذة انطلاق روحه نحو عالم أرحب من الذي يضعها فيه، بل يجب عليه أن يبحث خلف الجدران الصلدة،وأن ينتظر مدد غير منقطع من السماء، فالجهل طريق مسدود، والمعرفة سعادة صافية، الروح نور والنفس نار، بينهما برزخ أوله ليل وآخره نهار فمن قطع هذا البرزخ ووصل الليل بالنهار، أنشد وحده ترنيمة النور والنار.

سألته قائلة:

– هل يجب على الإنسان أن يترك حياته بأكملها لكي يبحث عن المعرفة؟

أجابني اللاما:

- نحن دومًا في اشتياق دائم إلى ملذات تفقد قيمتها حينما ننالها، بل إننا حينما ننالها لا نشعر بأننا كنا في شوق شديد إليها، وأننا قد ارتكبنا من أجلها العديد من الأخطاء، وحينما يُخطئ الإنسان من أجل نيل ملذاته، يتغلب طينه على روحه.

قلت له:

- هل تعني أن الأشياء التي نسعى إليها لا قيمة لها؟

أجابني قائلًا:

- ما يُكسب الأشياء قيمتها هي أطماعنا التي نُصبغها عليها لا أكثر، وليست قيمة الأشياء الحقيقية ذات نفسها، وهذا قد يجعلنا نرى الأشياء على غير حقيقتها، مما يفقد الإنسان معياره الحقيقي الذي يُقيّم به ما حوله.

قلت له:

- ولهذا تركت الماديات خلفك، وقررت أن تحيا في هذا المكان المقفر، حيث حياة خاوية تمامًا من كل شيء إلا العزلة والتقشف؟

أجابني قائلًا:

- حديثي لكِ لا يدعو إلى التقشف، وإنما يدعوكِ إلى معرفة روحكِ، ومن يعرف روحه، يزهد وحده في كل شيء، محظوظ هو من يعزز روحه ويغنيها، لأن جوع البطن يسده كسرة خبز، أما جوع الروح فلا يسده إلا معرفتها لحقيقتها واتصالها بمصدرها، والمصدر دومًا هو القدير الذي بث فينا من روحه الكثير.

قلت له:

- هل ترى من الفن نفحة من الروحانيات؟

أجابني قائلًا:

- يلجأ الإنسان إلى الفن والإبداع فيكتب،ويرسم، ويعزف الموسيقى، لكي يعبر عن وهج الروحانيات التي تسكنه والتي هي كلها هبات منحها القدير له، وعلى كل منا أن يبحث داخله عن الهبة التي أودعها القدير فيه، ولهذا فإن تعاسة الإنسان الحقيقية تكمن في عدم معرفته الحقيقة التي هو عليها، والتي يجب أن يبحث عنها بكل ما أوتي من قوة، إذا اكتشف الإنسان هبته وما يبدع في فعله، أتى له كل شيء، النجاح والسعادة بل والمال أيضًا.

هززت رأسي مصدقة على كلماته، وحينما عدت لأنظر إليه مرة أخرى لم أجده أمامي، تبخر من أمامي في غمضة عين، وكأن خلاياه قد تناثرت في أقل من ثانية في ذرات الهواء الذي أتنفسه، أخذت أفكر في كلماته، ونظرتُ إلى السماء مرة أخرى لكي أستطيع تحديد الوقت، كان النهار قد انتصف وما زال على حلول الليل بضع ساعات،أغمضت عيني، وبدأت في ترديد المانترا من جديد:

"القدير.. القدير.. القدير.."

***

29

كانت الفترة الفائتة التي مضت من إقامتي في موستانغ، بمثابة تدريب وضعني فيه اللاما كابيير كي أتعلم كيف أسيطر فيه على أفكاري، وكيف أتحكم في ذكرياتي، كيف أركز فقط على شيء واحد، وكيف أتقن فصل نفسي عن أي شيء حدث لي في الماضي، كان عقلي يتأرجح بين ما حدث لي من قبل وما أنا فيه الآن مثل ساعة البنادول، يتلاعب بي، بين الألم الذي سببه البعض لي في الماضي، وبين الحاضر المبهم الذي أحياه، وبين المستقبل الممتلئ بمخاوف كبرى وقلق عظيم، كان التنفس في تلك المرحلة من حياتي هو الرباط بين جسدي وعقلي وهو مددي بالطاقة اللازمة لي من أجل تعلم السيطرة على عالم مكتمل بداخلي اكتشف عنه كل جديد يومًا بعد يوم، وفي هذا المساء في أثناء تأملي للقمر، شعرت أن النجوم تعزف سيمفونية غنائية يرقص عليها الليل فوق مسرح روحي، كنت أشعر بالتناغم الشديد بيني وبين كل من حولي، شعرت أن القمر صديق حقيقي لي، أشعر به ويشعر بي، وأن بيننا رابطًا خفيًا يجمع بيننا، وأنه رفيقي مثلما أخبرني اللاما في أول ليلة لي معه، شعرت أن عقلي في إجازة مفتوحة، وأنه قد أتاح

لروحي حرية التعبير، ولأول مرة أستشعر أن الروح والنفس عالمان مختلفان، وأن الإنسان حينما يدرك حقيقة روحه يستطيع حينئذ أن يسيطر على نفسه، ووقتها لن يأبه للخسائر المادية من فقد مال أو حبيب، حتى مواجهة الموت لن تكون صعبة لأنه يدرك أن الجسد ما هو إلا إطار عليه أن يتحطم ذات يوم، لكي تخرج منه الروح، إلى عالمها الأكثر رحابة والذي تشتاق إليه لأنها تصبح فيه غير محدودة بجسد فانٍ، كانت أفكاري في هذا المساء تنساب بسلاسة وتلتف بنعومة حرير حول روحي، شعرت لأول مرة أن روحي تشرق منها شمس السلام الداخلي لتتصالح مع ذاتي التي قضيت معها حروبًا طويلة من قبل، ولأول مرة بعد كل الألم الذي كابدته فيما سبق من حياتي أشعر بمعاهدة عشق تشهدها كل حواسي، وفجأة تحولت غلالة الأفكار الرقيقة التي كانت تحيط بي في لطف منذ قليل إلي حبل خشن يلتف حول عنقي حتى يكاد أن يخنقني حينما ظهر وجه آدم الساخر بين كل تلك الأفكار البيضاء، فتحت عينيّ بسرعة، وحبستُ عبرة كادت أن تنفلت منها بقوة.

***

30

يبدو أنني لم أتخلص من كل الأفكار التي تراودني مثلما كنت أتخيل، لقد نجحت في التحكم بذاتي بشكل كبير، ولكنني لم أنجح في هذا الأمر بشكل كامل لأنني لم أصل بعد إلى حالة السلام والطمأنينة الذي يحيا فيه اللاما كابيير، وقد لا أصل إليه فهو في حالة من الهدوء والسكينة والتناغم مع من حوله أحسده عليها، وحتى كلمة أحسده تلك تدل على أنني ما زلت أحمل بعض المشاعر السلبية داخل قلبي والتي تمنعني من إكمال مساري الصحيح نحو الطمأنينة، قررت أن أعطي نفسي فرصة أخرى فهي تستحق ذلك بعد كل ما قطعته من شوط ناجح عبر تلك الرحلة.

وفي المساء بينما كنت أستعد لجلسة تأملية مع القمر جاءني اللاما كابيير وأخبرني أنه سوف يقضي الليل معي، كانت تلك هي المرة الأولى التي يشاركني فيها اللاما مرات التأمل العديدة التي كنت أقوم بها وحدي كل مرة، لكنه قبل أن نبدأ قال لي:

- حتى الحب قد يجعلنا أحيانًا عاجزين عن إدراك حقيقة أرواحنا، لأنه يحد من قدرتها على الوصول إلى أقصى رحلة في محطات الشعور..

لم أتعجب أن يبدأ اللاما كابيير حديثه معي تلك المرة عن الحب فكل ما شعرت به من ألم خلال حياتي كان بسبب الحب، فقد بنفسج، علاقتي المتوترة مع والديّ، ورحيل آدم، قلت له:

- بداخلي ألم كبير سببه لي الحب الذي أعطيته من لا يستحقه.

فقال لي:

- الألم هو مقدمة النضج، وهو الذي يجعل الإنسان يسعى إلى النهر لكي يطهر نفسه، كما أن شعور الحب هو ملك لمن يشعر به، وهو هدية لا تقدر بثمن، قد نهديها للبعض، وقد نحتفظ بها لأنفسنا، فإن أحب لا تعني بالضرورة أن أفني كياني في كيان من أحبه، ولا تعني أن أتحمل الألم والضيق وما لا أطيق من أجل من أحبه، أن أحب لا تعني بالضرورة أن أحيا مع من أحبه، إذا كان قد رحل لسبب خارج عن إرادته مثل الموت أو السفر أو لسبب آخر لا نعلمه نحن،ففيم يفيد الإصرار على البقاء مع حبيب غائب؟ يستطيع الإنسان أن يحفظ جوهرة الحب داخل قلبه دائمًا تحت أي ظرف، وليبق الحب داخلنا كشعور، رغم غياب من نحبهم، رغم بعدهم، رغم هجرهم لنا، ورغم ضيقنا منهم، ولهذا يجب على الإنسان الحفاظ على شعوره بالحب دائمًا، دون أن يربط هذا الشعور بشخص بعينه، فطبيعة الحياة لا تبقي معنا أحد مهما يطل مكوثه معنا، وعلى الإنسان أن يصبح

أكثر ذكاءً في استيعاب تغيرات العالم من حوله والتأقلم معها لكي يصبح قادرًا على المجابهة دومًا.

قلت له:

- ولكننا نجد صعوبة شديدة في أن نشعر بالحب، دون أن نمنحه لمن نحبهم، دون أن يوجدوا داخل حياتنا بشكل محسوس، فنراهم ويروننا، ويشاركوننا حياتنا، حتى لو لم يستحقوا هذا الحب، ولهذا يكون فقدهم أو غيابهم من أصعب الحقائق على قلوبنا المتعلقة بهم..

فقال لي:

- إننا نحب البعض ليس لأنهم يستحقون محبتنا، ولكن لأن قلوبنا أرادت ذلك، ولن نقوى على الحفاظ على شعور الحب بداخلنا بعيدًا عن وجود من نحبهم في حياتنا أو غيابهم عنا إلا إذا أحببناهم بصدق مجرد عما نرغبه نحن فيهم أو ما ننتظره منهم، فإذا وصل الإنسان لهذه الدرجة من الحب فلن يضيره بقاؤه مع من يحب من غيابه عنه، ما دام شعوره بالحب تجاهه حيًا بداخله لا يموت.

قلت له:

- هذه فلسفة جديدة في الحب لم أسمع عنها من قبل ولا أعتقد أن هناك الكثيرين ممن يؤمنون بها في هذا العالم، فكيف نستمر في حب شخص ونجرد أنفسنا منه في آن واحد؟ كيف نستطيع أن نتقبل النهايات التي تمحي وجودهم من حياتنا بكل بساطة كأنهم لم يكونوا معنا؟ كيف نجبر عقولنا ألا تفكر فيهم وألا تتألم لبعدهم؟

قال لي اللاما كابيير:

- ومن قال لكِ إن هناك نهاية؟ الحقيقة تكمن في اللانهاية، ولكننا نخدع أنفسنا حينما نتوهم أننا نحن من يضع النهايات للقصص، فأنتِ حينما تقرئين كتابا تجدين أنه مُكوَّن من فصول عديدة، وحينما تقرئين الفصل تجدين أنه مكون من عدة أسطر، وأن كل سطر مكون من العديد من الأحرف، حتى الحرف الواحد يمكنه صنع عدد لا نهائي من الأسطر والفصول والكتب، وإذا نظرتِ إلى الوردة، تجدينها عبارة عن بتلات ملونة وأوراق عديدة، ولكنكِ حينما تحبين الوردة، لا تفكرين في المكون الذي يوجد بالوردة والذي جعلكِ تقعين في حبها! أنتِ لا تفكرين في مكمن سر جاذبية الحب، هل يكمن في الأوراق أم في الألوان أم في الرائحة الذكية، نحن في حقيقة الأمر نحب أثر الوردة في نفوسنا، ويكون الحب هنا لا علاقة له بالوجود المادي لها بقدر ما يكون له علاقة بحقيقة روحية تسكننا ونعجز عن تفسير كنهها، وهذا يجعلني أسالك سؤالًا مهمًّا وهو لماذا أحببتِ من تألمتِ لفقدهم؟ وتذكري أنكِ إذا إخبرتيني عن شيء فيهم، فإنك لا تتحدثين عن معنى الحب الذي أعنيه هنا..

أطرقت برأسي وتذكرت بنفسج وتساءلت: لماذا أحببت بنفسج؟ هل لأنها الشخص الوحيد الذي تفتحت عيناي عليه؟ أم لأنها علمتني الكثير، ورافقتني طوال حياتي؟ لقد أحببت بنفسج كإنسانة لأنها تستحق أن تُحب، حتى في نهاية حياتها حينما كانت علاقتي بها متوترة للغاية ولم تكن تُعلمني شيئًا جديدًا، لم أتوقف عن حبها وحتى حينما رحلت عن الدنيا لا أتذكر ما

فعلته من أجلي بقدر ما أتذكر ما أحدثته بنفسج بي من أثر طيب، لم يقل إيماني بها ولا تصديقي لها حتى أن منامًا جمعني بها غيّر حياتي وجعلني أرجئ تنفيذ فكرة الانتحار حتى حين، وقادني إلى تلك التجربة الكبيرة، إن حبي لبنفسج حب لا يرتبط بشيء فعلته من أجلي أو بشيء فيها، بل إن حبي لها حب كبير يشبه الحب الذي يتحدث عنه اللاما كابيير، حب يحيا بداخل الإنسان على الرغم من غياب وجود الشخص المادي معه، ثم عدت لأتذكر آدم وتساءلت أيضًا لماذا أحببته؟ ولأول مرة اكتشف أن هناك أسبابًا مادية جعلتني أحب هذا الشخص، فقد كان هو الرجل الأول والوحيد في حياتي في ذلك الوقت، والذي أستطاع أن يقترب مني إلي هذه الدرجة في وقت افتقدت فيه وجود الرجل بشدة، كنت دومًا أشعر أنني في حاجة ملحة إلي وجوده، وأن وجوده في حياتي نابع عن هذا الاحتياج الشديد وليس عن حبي الحقيقي له، حتى أنني في أكثر لحظات التألم من غيابه، كنت ألعن احتياجي له ولوجوده بجواري كنت ناقمة عن تخليه عني في وقت لم يكون يوجد في حياتي سواه، ربما كان حبي له ليس لما هو عليه، بقدر لما أحتاجه أنا منه وأنتظر أن يقدمه من أجلي..

تنبهتُ إلى أن اللاما كابيير مازال في انتظار رد مني طال تأخره بسبب تفكيري في إجابته فقلت له:

- لست أدري!

تبسم اللاما كابيير في مرة من المرات القليلة التي تنير وجهه ابتسامة وقال لي:

- لا يوجد أحد يحب بصدق يستطيع أن يجيبك عن هذا الأمر، لأنه ما من أحد يعرف حقيقة الحب التي تربطنا بأشياء أو أشخاص بعينهم، وما من أحد يجد تفسيرًا لما تُحدثه كيمياء أجسادنا فينا حينما تتحرك تجاه البعض دون غيرهم، فحينما يدخل الشخص الذي نحبه قلوبنا، يزول عنه الستار المادي الذي يُغلفه ويصبح هذا الشخص مرادفًا لشعور السكينة والراحة والأمان بمجرد ذكر اسمه أو تجلي وجوده، نحن وقتها من يربط جمال وجوه من نحبهم بحبنا لهم، رغم أن ذلك غير حقيقي بالمرة، وأكبر دليل على ذلك هو أن هناك بعض البشر الذين نحبهم ونراهم أيقونات حية للجمال، في حين أن غيرنا لا يروهم كذلك لأنهم لا يرونهم كما نراهم نحن، بل إن البعض قد يستقبح وجوههم أو خصالهم، ولكننا لا نرى ذلك، بل نرفض الاعتراف به إذا واجهونا به.

كانت فلسفة اللاما كابيير في الحب فلسفة جديدة في نوعها جعلتني بقليل من التفكير فيما قاله اكتشف أنني قد ودعت أحبتي لفترات قصيرة أو طويلة،لكنها على آية حال وداعات من تلك التي تكسر القلب وتشرخ الروح وتوهن القوى، وداعات لا تصير الحياة بعدها كما كانت ولا تستقيم فلا تصير أنت كما كنت بعدها، ولا كما عرفك البعض.

سفر،موت،شقاق،ترحال،تقلب الأحوال،تعددت الوداعات، واختلفت أسباب الهجر، لكن الوجع واحد،فقطرات العسل المصفى، ولحظات الخمر المسكرة، وأوقات السعادة الخالصة، إذًا أتت فإن الحياة تطالبنا بثمن مضاعف ندفعه من أيامنا فيما بعد، كمُرابٍ أعطي محتاجًا جنيهًا ليسترده

أضعافًا مضاعفةً خلال مدة وجيزة، ولعل الصعوبة لدى البعض تكمن دومًا في أمرين أن تنْهي قصة لا ترى فيها الخير لكنك لا تستطع العيش بدونها، أو أن تنتهي تلك القصة لسبب أو لآخر لا يد لك فيه، لتبدأ بعدها حياة جديدة جافة وخاوية من كل ما اعتدته وأدمنته وأحببته،حتى لو كان لديك علم بأن تعاستك تكمن في الاستمرار وأن شقاءك في التمادي، أنت على شفا حفرة من نار، تقترب ولا تصل، تبتعد ولا تنسى، ليرحل من يرحل عنك بوجوده المادي، لكنه لا يرحل عن عالمك الداخلي الذي لا يراه ولا يشعر به سواك،مها صور لك البعض أنهم يفهمونك ويشعرون بك ويقدرون تلك الحالة التي تحيا فيها من العدمية والعبثية فلا أحد في النهاية يشعر بما تشعر به أنت، تبدأ الحياة تفقد لذتها في عينك، وتتغير نظرتك للأمور، لتكتشف أن كل شيء لم يعد كما كان، وأن الألم قد غيّرك، لتصير ذلك الشخص الحزين جدًّا مهما يضحك، والوحيد جدًّا مهما يكثر عدد المحيطين به، تجرب كل حالات الوحدة، وتأتي عليك الأوقات التي لا ترغب أن ترى فيها مخلوق، ولا ترغب أن يقترب منك البعض، تضيق ذرعًا بالكلمات والمناسبات الاجتماعية وبكل الهواء الذي يحيا فيه البشر، فمكان واحد تمر به كفيل أن يشعل بداخلك جذوة الذكريات التي ولتْ، وكلمة تقال من أحد ربما تذكرك بمن رحل، موقف يمر بك قد يتشابه مع ذكرى لا تستطيع أن تتخلص منها، ليل يحل عليك ليواجهك بكل ما هربت منه طوال النهار، يتجلى الرحيل ليصير عين الحقيقة، تعود لتسترجع كل ما تناسيته بتفاصيله الدقيقة، ولعل المثير للشفقة أكثر أنك قد تحولت إلى حقيبة للوجع، فكلما رحل عنك شخص بوجوده المادي، ترك لك

شبحًا هزيلًا تراه وحدك وتسمعه وتشم رائحته، يحاصرك بالعالم الذي كان يجمعك معه، والذي لم تُطوَ صفحته داخلك بعد، فحينما يرحل البعض فإننا لا نبكيهم بقدر ما نبكي وحدتنا بعدهم، لا نتألم لفقدهم بقدر ما نتألم على الأوقات المهدرة بدونهم، لا نرثيهم بقدر ما نرثي أنفسنا العزيزة التي أراقوا دماء كبرياءها قطرة قطرة، وربما نرثي الحب والذكريات والحياة التي رسمناها معهم ثم حُرمنا إياها، نرثي التوقعات التي ُهد سقفها فوق حوائط قلوبنا، ونرثي كل الأشياء الطيبة التي كانت وما عادت.

علمت أنني قد نضجت حينما صرت أنظر إلى أفعالي السابقة وأشعر كم كنت حمقاء، فلقد أدركت في الفترة التي قضيتها مع اللاما كابيير أن ليس كل ما نقع فيه نستطيع أن نخرج منه بسهولة، وليس كل ما نخرج منه بسهولة نستطيع أن نتناساه، وأن هناك بعض المشكلات التي لا نملك مفاتيح أبوابها المغلقة، وقد لا نملك وقتها إلا قبول صعوبتها على قلوبنا نتأقلم، ونتجاهل وجودها، نُسلم أمورنا لمن بيده مفاتيح كل شيء، فهو الوحيد الذي لا يستعصي عليه باب، ربما كان احتضان الألم هو الطريقة الوحيدة للنجاة حقًا، فهو يُصقلنا ويؤهلنا لتجارب قادمة قد تكون أكثر صعوبة، فيعدنا لما هو آت ولكن بشكل أكثر قوة، يُهذبنا ويعلمنا، ربما يُنضجنا كما أخبرني اللاما كابيير مثلما تُنضج النار الطعام ليصير أشهى.

صرت أؤمن أن الوقت علاج مثالي لكل شيء في الحياة تقريبًا، كيف تتخلص من الألم بمرور الوقت، كيف تقوى على البعد؟ بمرور الوقت، كيف تتناسى من تحبهم،بمرور الوقت،كيف تحب من جديد؟ بمرور الوقت،

كيف تتخطى كل ما مررت به؟ بمرور الوقت؟ الوقت دواء لكل داء، وإذا كان البعض لا يعلم ذلك، فسوف يدركون تلك الحقيقة بمرور الوقت، فالوقت قادر على التعامل مع كل أمورنا على صعوبتها، وربما يتيح الظهور لبعض الأشخاص المميزين الذين لا يتكرر لقياهم في الحياة ولبعض الرسائل والعلامات التي تتعثر فيها أقدامنا من وقت لآخر لكي تعيد فيها ومضة حب الحياة، ولأن حب الحياة أقوى، فما زلت أبحث عن تلك القطعة الأخيرة التي تحل اللغز، أبحث عن الحقيقة التي تجعلني أنظر للمرآة فلا أجذع، ربما وقتها تندمل الجراح، وتُرفأ ثقوب الثوب،وتُشفي الآلام فالحب بين المخلوقات طبيعة، مهما ظنوا أنهم لم تعد لديهم تلك الحجرات الشاغرة إلا من الوجع، والعشق فيهم فطرة تشتعل بومضة طفيفة في ظلام الأفق، والتلامس الروحي عن رضا هو غاية الشعور، بينما التراحم للرحماء الذين حق على القدير أن يرحمهم.

ولأول مرة أستطيع أن أميز بنفسي الفارق الكبير بين من أحببتهم لذواتهم وبين من توهمت حبهم، ولأول مرة أشعر بعدم احتياجي إلى آدم، ولأول مرة أشعر بأن ما كنت فيه معه لم يكن حبًّا، ولأول مرة ألمح طيف بنفسج يتبسم لي، لأوقن أنها رغم موتها لم تمت، ورغم غيابها عني لم تغب، وأنني كنت أبحث عنها بعيدًا جدًّا، في حين أنها كانت أقرب من حبل الوريد، ومرة ثانية تعود الشمس لتشرق من روحي من جديد..

***

31

الأسابيع التي تلت آخر حديث للاما كابيير معي كانت من أفضل الأسابيع التي قضيتها في كهوف موستانغ، فقد نجحت في تلك الفترة في تركيز نظري على القمر دون أن أنغمس في أي فكرة أخرى، كنت ألمح الأفكار وهي تتجلى في الفراغ المبسوط أمامي ثم تذهب بعيدًا إلى غير رجعة دون أدنى مجهود مني كما كنت أفعل من قبل، كنت أعيش يومي ببساطة مثلما طلب مني اللاما كابيير في بداية مجيئي إلى التبت، أنظر إلى الشمس وأعلم منها كل شيء، أصبحت أكثر خبرة في تحديد التوقيت من خلال الشمس، أصبحت أدرك حلول وقت الظهيرة حينما تنحرف الشمس من وسط السماء ليستمر الظهر حتى يصبح ظل كل شيء حولي مثله تمامًا، وقد اهتديت إلى أن أغرس خشبة طويلة ومستقيمة فوق أرض ممدودة كي يكون لها ظل على الأرض، وحينما يزداد الظل فإن هذا يعني بداية وقت الظهيرة، وحينما يستطيل ظل الخشبة حتى يصير مثل طولها تمامًا فهذا يعني انتهاءه، وحينما يبدأ ظل الخشبة في الازدياد دون أن أحتسب الظل الذي كان موجودًا عند الزوال يكون ذلك إيذانًا بحلول

فترة العصر حتى تصفر الشمس إيذانًا بحلول وقت غروبها، ليغيب قرص الشمس وينتهي تمامًا بغياب الشفق الأحمر، ليعلن الغروب عن نفسه بثلاثة مراحل احمرار فبياض فسواد، وحينما يظهر السواد، يكون الغروب قد انتهى تمامًا، ليحل المساء الذي أرقب فيه أحوال القمر، محاقًا، فهلالًا، فبدرًا مكتملًا في غاية البهاء، وحينما يأتي وقت الصبح، يطلع الفجر من رحم العتمة، يبدأ من جهة المشرق، ويبسط كفه المنير في الأفق، ثم ينتشر الضوء في أرجاء السماء جميعها، ويؤذن بطلوع الشمس من جديد، حتى الطبيعة لها قانون ثابت لا تحيد عنه أبدًا، نحن فقط من لا ندرك ذلك حينما نعتمد على ساعات اليد وعلى الهواتف الذكية التي تحجر على ملكات التأمل التي تقبع بداخلنا في انتظار ساعة الانطلاق..

أدركت أيضًا لماذا يحرص اللاما كابيير على أن أبدل بين الرداءين اللذين أعطاني إياهما ، فقد كان الرداء الماروني يشبه لون الشمس في لحظة تعامدها على الأرض حينما يختفي الظل تمامًا عنها بما يشير إلى لحظة أبدية يختفي فيها ظل الإنسان عن الأرض لتحلق روحه في الفضاء، أما اللون الأبيض في الرداء الآخر فهو يشير إلى القمر الذي يرمز إلى الطهارة والنقاء وحالة السلام الداخلية التي تغمر من ينجح في تأمله..

بدأت كل الأحاجي المبهمة تتضح لي واحدًا تلو الآخر دون أن أسأل اللاما كابيير عنها، فنقاء الذهن الذي أصبحت أتمتع به ساعدني كثيرًا على التفكير بتأنٍّ وعلى إدراك الكثير من الحقائق الجلية للمتأملين والخافية عن المنشغلين بين شتات الأفكار وصراع المشاعر، بدأت أشعر أن كل ما كنت

فيه، كان يعدُّ عقدًا كان عليها أن تُحل أولًا حتى أتخلص من كل الطاقات السلبية التي كانت تقف حائلًا بيني وبين الوصول إلى إدراك الحقيقة، وحينما نجحت في الاتصال الحقيقي بالكون المحيط بي بدأت أستشعر أن هناك عينًا تحوطني بالنظر، وأنني مشمولة برعاية كبيرة لم تكن تتحسسها روحي من قبل، أدركت أن المعنى الذي تحدث عنه اللاما كابيير في أولى أيام وصولي إلى هنا لا تتلمسه النفس إلا حينما تنطلق الروح في مدارج البحث، أصبحت أشعر بالقوة التي تسيطر على الكون والذي أصبحتُ في حالة تناغم كبرى معه، ولم يعد مهمًّا أن أراها بعيني المادية، بقدر ما أراها بعين روحي الداخلية، كان كل يوم في موستانغ يُقربني من تلك المعاني التي لم أكن قد تذوقت حلاوة إدراكها من قبل، كل يوم يمضي يغمرني بحالة من السكينة والسلام الداخلي أكثر.

أصبحت أشعر بمحبتي لكل ما حولي، اللاما كابيير، كل كهوف الوادي، وكل جلاميده، كل السكان المحليين الذين رأيتهم في رحلتي إلى موستانغ، أبيجيتا، الفريق الأمريكي الذي أتى بي إلى هنا، آدم رغم كل ما صدر منه نحوي، تمنيت لو خاض تجربة كتلك ليتعلم عشق الروح ويترك ما هو فيه، أحببت بنفسج بشكل أكبر من ذي قبل، حتى أبي وأمي اللذان لم أرهما كثيرًا في حياتي شعرت بأنني أحبهما أيضًا رغم كل ما كان داخلي نحوهما، أحبهما لأنهما أتيا بي إلى الدنيا لكي أخوض تلك التجربة وأشعر بكل المعاني العذبة التي أعيشها وتعشيني الآن، شعرتُ بامتنان كبير نحو اللاما كابيير حتى أنني حينما انتهيت من التأمل في هذا اليوم ذهبت إليه وقبّلت يديه التي تركها لي في رضًا..

32

بدأ اللاما كابيير في هذا الصباح بإضافة تمرين جديد إلى التمرينين اللذين كنت أتدرب عليهما طوال الفترة الفائتة وهو تمرين آخر للتأمل يستغرق قرابة العشرين دقيقة في كل مرة، حدد لي اللاما أوقاتًا معينة لكي أؤديه فيها، وهما بعد الفجر مباشرة، وبعد الغروب، وكان يؤكد عليَّ دومًا بألا أتناول كسرة الخبز التي يعطيني إياها إلا قبل التمرين بساعتين على الأقل، حتى يكون جسدي خفيفًا فيساعد روحي أكثر على الانطلاق، كانت تتجلى لي في تلك الأوقات أطياف نورانية أعجز عن تفسيرها، وكنت أشعر أن جسدي قد ذاب كالسكر وأن روحي مثل طير صغير قادر على التحليق، شعرت أنني قد انفصلت عن مكاني، وأنني صعدت إلى أعلى حيث تلتقي كل الأرواح التي تتقن فن التحليق، رأيت العديد من الوجوه، ولكنني لم أميز من بينهم إلا وجه كابيير وبنفسج، وحينما انتهى التمرين، شعرت براحة عميقة في بدني، راحة من خلد إلى النعاس لعدد كبير من الساعات، وحينما وصلت إلى تلك النقطة استطعت أن أفسر لماذا

لا يشعر اللاما كابيير بحاجته الملحة إلى النوم فمن يمارس هذا التمرين يشعر بأنه قد نام طويلًا، يكون كل ما فيّ متيقظ وغير راغب إلا في استكمال تلك الرحلة الشائقة، وفي اليوم التالي طلب منى اللاما كابيير أن أمارس التأمل عبر مراقبة دقات قلبي الذي لو توقف لما أصبحت على قيد الحياة، شعرت بالامتنان نحو هذا القلب الذي يخفق دون توقف، والذي بفضل قوته والتزامه بقانون عمله الدؤوب، نستمر نحن في العيش، لم أكن قد فكرت من قبل في أن عضلة القلب تعمل دون انقطاع ولا ترتاح حتى حينما ترتاح كل خلايا جسدنا في أثناء النوم، لأنها إذا ارتاحت كان ذلك إيذانًا براحتنا الكبرى وانصرافنا من ذلك العالم المادي..

في النهاية استطعت أن أجتاز ذلك التمرين الذي وضعه لي اللاما بنجاح فائق، كما أنني قد أصبحت أكثر امتنانًا لنعمة الحياة التي منحها لنا القدير، وحينما طلب مني اللاما في اليوم الذي يليه أن أركز أكثر على تنفسي، وجدت أنني أبلى نجاحا كبيرًا فيما طلبه منى، ومع مرور الوقت أصبحت أتحكم في التنفس من خلال فتحات الأنف بل من خلال التبديل بين فتحتين الأنف، الآن أستطيع أن أتنفس من فمي ومن فتحتي أنفي بل أنني أستطيع التنفس من فتحة أنف واحدة فقط، كما أنني أستطيع أن أبدل التنفس بين الأنف والفم وبين فتحتي الأنف بمنتهى السهولة متى طلب منى اللاما كابيير هذا،ولكن ذلك التحكم الهائل في تقنيات التنفس لم أكن لأصل إليه إلا من خلال ذهن صاف ودرجة تحكم في الجسد هائلة تحتاج المداومة على مئات التدريبات المستمرة التي كان للاما أكبر الفضل في حثي عليها، وفي تلك اللحظة شعرت أن الشمس التي تُبعث من روحي قد صارت أكثر إشراقًا من ذي قبل.

33

في هذا الصباح لم يطلب مني اللاما كابيير أن أبدأ تماريني المعتادة، وإنما أخذني إلى كهفه، وحينما دخلت معه إلى الكهف وجدت تابوت خشبي كبير، كان التابوت بالنسبة لي أشبه بتلك التوابيت الفرعونية التي استخدمها قُدامى المصريين في تشييع موتاهم، تعجبتُ حينما رأيت ذلك التابوت لأنني لم أعرف من أين أتى به، فقد كانت هيئة التابوت الخارجية تشير إلى ثقل وزنه، وأن اللاما لن يستطيع حمله أو إدخاله بمفرده إلى الكهف، فبنية اللاما الجسدية أقل ما يمكن للمرء أن يقول عنها هي إنها ضعيفة للغاية، حتى أنني حينما رأيته لأول مرة تعجبت من أن هناك رجلًا على قيد الحياة على هذا القدر من النحول، وأن تلك الهيئة قادرة على التحرك بمنتهى القوة والثبات التي أراها منه دومًا دون أن يبدو عليه الإجهاد السريع،كنت قد وصلت إلى درجة كبيرة من التصديق في قدرات اللاما والإيمان بنفحاته والتي جعلت دهشتي تتبخر سريعًا حتى أنني لم أسأله كيف أتى بالتابوت إلى هنا، استنبطت أن هناك تجربة جديدة على وشك أن أخوضها مع هذا التابوت، وقد كان استنباطي صحيحًا، فقد طلب مني

اللاما أن أفتح التابوت وأن أستقر داخل جوفه، سريعًا نفذت ما أمرني به اللاما، فتحت غطاءه الخشبي السميك بصعوبة شديدة، وجلست داخله، طلب مني اللاما أن أستلقي داخل التابوت، وأن أغمض عيني، ففعلت..

- أنتِ لم تعودي في هذا العالم، لقد انتقلتِ إلي العالم الآخر، لذلك لا تتذكري ماضيكِ، ولا تفكري في مستقبلكِ، بل فكري في ماذا لو!، فكري في كل ما لم تفعليه حينما كنتِ في العالم المادي، فكري في الأمنيات المؤجلة والمشاعر المهدرة والأشخاص الذين تتمنين أن تجمعكِ بهم دقيقة واحدة على تلك الأرض مرة أخرى، ماذا لو أتاح لكِ الزمن فرصة جديدة للعودة؟ هل سيتغير بداخلكِ شيء ما؟ هل ستغيرين قرارًا أو سلوكًا في حياتكِ حتى لو كان بسيطًا؟ فكري في كل هذا دون عجلة يا هالي فلديكِ وقت طويل للتفكير..

أغلق اللاما كابيير غطاء التابوت دون أن يسمع مني جوابًا، لم أعتد أن ينتظر اللاما مني موافقة على تمارينه، ولم أعتد أن يستمع إلي جواب مني، فهو يخبرني بما لديه ثم يذهب إلى حال سبيله، ويتركني أنا والتمرين وجهًا لوجه، ولكن تلك التجربة كانت غريبة حقًا، فهي تشبه حالة من الوفاة الزائفة حيث الظلام يلف جسدك من كل صوب، كان التابوت ضيقًا وبالكاد يتسع لي، حتى أنني اضطررت أن أثني أصابع قدمي قليلًا لكيلا تصطدم بحافة التابوت، شعرت بأن أنفاسي تختنق، ربما لأن الأوكسجين داخل التابوت لم يكن كافيًا لكي أتنفس بشكل جيد، بدأت بعد قليل أشعر ببرودة شديدة، ربما كانت تلك البرودة تشبه برودة القبر

التي يشعر بها كل راحل، حينما يتركه ذووه للوحدة والظلمة والصمت، ولا ينجيه من كل هذا إلا طاقة المحبة التي يحملها داخله والتي وزع منها على من حوله طوال رحلته على الأرض، أخبرني اللاما كابيير من قبل أننا لا نكون وحدنا إلا حينما نذهب إلى القبور، وهأنذا أحيا تجربة وحدة القبر وأنا على قيد الحياة، ربما أكون قد غادرت الدنيا دون أن أدري، وربما أكون ما زلت على قيد الحياة، يصعب عليَّ في هذا الموقف أن أحدد أين أنا، شعرت بالوحشة الشديدة كما لم أشعر بها من قبل، فكرت في كل الراحلين الذين تضمهم أكفانهم داخل قبور لا تستقبل إلا المزيد من الأجساد المفارقة لأرواحها، تذكرت بنفسج التي رحلت وتركتها وحيدة في قبر كهذا دون أن أفكر في مصيرها بعد رحيلي عنها، لقد تركتها للظلمة والوحشة، وما زلت أحيا في النور، إذًا من الوحيد فينا؟ ومن المفارق منا؟ أهو من دخل القبر أم من ظل خارجه ينعى من رحل؟ طوبى لكل من ضمه قبر مظلم بين جنباته، طوبى لكل من لم يحنُ عليه بشري فوجد الراحة بين يدي الموت..

أخذت أفكر في كل ما حدث لي بحياتي، وماذا لو انتهت بي دون أن أحقق أهدافي بها؟ ولكن ما أهدافي في تلك الحياة؟ ففي الفترة الأخيرة لم يكن لي أي أهداف تُذكر، ولم أعد أسعي خلف أي شيء، لقد تركت الحزن يأكل روحي، كسرطان لعين، دون أن أستطيع مقاومته، في الأشهر الأخيرة من حياتي توقفت عن كل الأنشطة التي كنت أداوم عليها، ولم أعد أفعل منها شيئًا، علقت كل خيباتي على حائط الألم وجلست أبكيه، تركت

أيامًا عديدة تنفلت مني دون أن أعيشها كما يجب، لو قُدر لي أن أعود مرة أخرى للحياة لغيرت الكثير والكثير مما فعلته بالأمس، لو قُدر لي العودة مرة أخرى للحياة لكّونت العديد من الصداقات، ولتمتعت بكل دقيقة في حياتي، ولسعيت إلى نشر السعادة في كل مكان أذهب إليه، سآخذ بيد كل مكلوم، وسأساعد كل متألم، سأجعل الجميع يرون أن لا شيء يستحق مهما بدا كبيرًا في أعينهم، سأقدم الدعم والعون للجميع قدر استطاعتي، لو قُدر لي العودة إلى الحياة مرة أخرى لسامحت أبي وأمي عما فعلاه بي، ربما كان هناك سببًا لا أعلمه يبرر ما فعلاه معي، ربما كان هناك سببًا قويًّا لاختفائهما المفاجئ، شعرت في تلك اللحظة بأنني أسامحهما على كل شيء حتى لو لم أعلم سببه، فقد صرت أؤمن أن كل الأحداث تؤدي إلى بقية الأحداث، ولعل ما فعلاه معي كان سببًا في خوضي لتلك التجربة الروحية التي ما كنت لأخوضها لولا ذلك الألم الذي فاض بي ذات يوم!

الكثير والكثير من الأفكار كانت رفيقتي في تلك المدة التي قضيتها داخل التابوت الخشبي، حتى شعرت بيد تمتد إلى غطاء التابوت وتزيحه، رفع اللاما كابيير الغطاء عني بعد مدة لا أعلم مداها ليدع النور يتسلل إلى روحي قبل عيني، لم أتحمل الضوء المباشر في البداية من فرط العتمة التي كنت فيها، وسرعان ما اعتادت عيني النور، اكتشفت أنني ما زلت على قيد الحياة،وأنني قد مُنحت فرصة أخرى للعيش على تلك الأرض، وحري بي أن أعمل لها كأنني سأعيش أبدًا سرمديًا، أشكرك كثيرًا يا إلهي على هبة الحياة والتي لا تُقدر بثمن، ومن جديد شعرت بأشعة الشمس الذهبية تبسط نورها على روحي التي أشرقت بفرصة جديدة ومحبة للحياة.

34

بعد أن صرت على علم بالكثير من الإجابات، لم يبق لي سوى أن أعرف كيف ومتى تعرفت بنفسج إلى اللاما كابيير؟ هل التقت به من قبل؟ وكيف أخبرته عني؟ وكيف عرف اللاما أنه سيلقاني هنا وأنه سيعلمني ما لم أعلم؟ لماذا فقدت قلادتي بالقرب من المكان الذي التقيت فيه باللاما كابيير؟ هل يُعقل أن تكون كل تلك الأحداث محض مصادفة؟ أم أن كل شيء كان مرتبًا بعناية منذ البداية؟ لم أعد أؤمن بالمصادفات العبثية، فكل أحداث حياتنا قدرية، كيف كنت أحمل المانترا الخاصة بي طوال كل تلك المدة دون أن أعلم؟ هل كانت بنفسج تعلم أنني سآتي هنا ذات يوم ولهذا أهدتني تلك القلادة؟ لقد كانت ثقتي بكلمات بنفسج حينما قالت لي في المنام أن صديقها سوف يعلمني ما لم تعلمني هي السبب في خوضي لتلك الرحلة، واجهت اللاما كابيير بكل أسئلتي لكنه أخبرني أن وقت الكشف لم يحن بعد، لم ألح عليه كي يجيب، لأنه لن يفعل، كما أن ثقة جديدة قد اكتسبتها في هذا الرجل وهو أنه دائمًا على حق، إذا كان يرى أن وقت الكشف لم يحن بعد فلأنتظر مهما يقتلني فضولي..

تركت الفرصة لمشاعري الإيجابية كي تغمرني من جديد، كان أكبر ما أشعر به هو امتناني نحو الخالق القدير الذي بث فينا من روحه قدسية الحياة ونورها، لم أعد منشغلة بمعرفة هيئة الله كما كنت في الماضي، فقد أصبحتُ أتحسس كينونته بروحي، أستشعر اتصالي به من خلال اتصالي بالكون الذي يهيمن عليه بملكوته، ولم أكن أصل لما وصلت إليه دون مساعدة اللاما كابيير والذي جعلني أتخطى كل الآلام العالقة بي بعد أن كادت تقضي عليَّ، أصبحت أحيا بفلسفة جديدة عن الحب والفقد، عن الحياة والحق، عن الرسالة التي خُلقنا من أجلها..

كل تلك المحن التي تعرضت لها ما كنت لأتخطاها لولا تلك التمارين الروحية، وتلك الفلسفة الحياتية الجديدة ما كنت لأدركها لولا تلك الكلمات التي بثها اللاما كابيير بداخلي، لقد علمت أن ما نظهره من أنفسنا وما تظهره الحياة فينا هو جزء محدود للغاية من العالم اللامتناهي الذي يسكننا، فماذا لو أتاح لنا الوقت، وسمحت لنا الحياة بأن نظهر هذا العالم بأكمله؟

وفي الصباح الأخير لي في الكهف الذي صرت أحب وجودي فيه أكثر من أي مكان آخر، قال لي اللاما كابيير:

- الآن أستطيع أن أترككِ وأنتِ أكثر حكمة وقدرة على مجابهة الحياة مهما تقسُ.

اكتست ملامحي بالدهشة وقلت له:

- هل هذا يعني أن فترة مكوثي معك قد انتهت؟

رد عليّ قائلًا:

- لقد اجتزتِ كل ما كان مقدرًا لكِ اجتيازه ولم يعد هناك داعٍ لبقائك هنا أكثر من هذا، ما قدمته لكِ أيقظ روحكِ التي كانت في سبات عميق، وهذا سيذكركِ دومًا أن لروحكِ حقًا عظيمًا عليكِ لن تستطيعين إغفاله بعد اليوم، قلت له:

- هل تعني أنني يجب أن أعود مرة أخرى إلى استئناف حياتي السابقة من جديد؟

أجابني اللاما قائلًا:

- سوف تعودين إلى حياتكِ الجديدة ولكنكِ لن تعودي إلى حياتك السابقة..

شعرت بحزن شديد لأنني سوف أرحل عن اللاما كابيير، بعد أن اعتدت وجودي معه، لم يكن لديّ تصور حقيقي عن الكيفية التي سوف أحيا بها حياتي بعد كل ما حدث لي في موستانغ حينما أعود مرة أخرى إلى مصر، أعاد لي اللاما كابيير حقيبتي التي أخذها مني في أول يوم لي معه، وحينما عُدت إلى الكهف لكي أبدل ثيابي وأرتدي نفس الملابس التي أتيت بها، وجدت أن ملابسي السابقة لم تعد مناسبة لي، فقد أصبحت أكثر اتساعًا، تبسمت حينما راودتني فكرة أن ملابسي القديمة لم تعد تناسبني هي الأخرى مثلما لم تعد حياتي القديمة تناسبني أيضًا، ربما تكون تلك

علامة جديدة يجب أن التقطها بروحي، بعد أن أصبحتُ فتاة تؤمن بأهمية العلامات والإشارات في حياة البشر أكثر من أي وقت مضى..

لملمت بعض الصخور الصغيرة الموجودة داخل الكهف الذي أقمت به كتذكار صغير عن الفترة التي قضيتها بهذا المكان، كنت أرغب في التقاط صورة تذكارية بهاتفي النقال مع اللاما كابيير قبيل رحيلي ولكن بطاريته كانت بحاجة إلى الشحن فظل مغلقًا، ولما لم يكن في المكان وسيلة لإعادة شحنه،فقد ودعت اللاما كابيير والدمع يطفر من عيني، قبلت يده ومشيت وكلماته الأخيرة ترن في أذنيّ..

- تذكري يا هالي، إن الإنسان مهما يسافر بعيدًا، تبقى رحلته الأهم هي رحلته إلى الداخل، رحلة استكشاف عوالمه الخاصة..

كانت تلك هي المرة الثالثة التي ينطق فيها اسمي منذ أن رآني ورأيته، عدلت من وضع بنطالي الذي يكاد يسقط مني، حملت حقيبتي على ظهري، كنت أخشى ألا أتمكن من الهبوط والوصول إلى القرية وحدي، إلا أن اللاما كابيير أشار لي إلى بداية الطريق وأخبرني بأن أستمر بالمضي فيه، وألا أتوقف أبدًا، وسوف أصل بسلام إلى القرية، لم يعرض عليَّ مرافقتي، ففهمت أنني سأرحل وحدي..

تأهبت للنزول إلى أسفل جبل الهيمالايا،بعيدًا جدًّا عن كهوف موستانغ الحبيبة.

***

الحقيقة

ويقول لي مرة بصراحة صلبة " أهم شيء في الدنيا أن نعرف الحقيقة ويغمغم بثقة وأسى معًا "الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة".

نجيب محفوظ

35

كان أول ما أنوي فعله بعد رحلة الهبوط الشاقة أن أشتري ملابسًا جديدة يناسب قياسها قياس جسدي الجديد كي أستطيع التحرك بشكل أفضل، وحينما لمحت أول قرويّ يحمل كومة من الحطب على حماره، قلت مرحبًا للعالم المادي، ها قد عُدت إليك من جديد..

كانت أبيجيتا هي أول من خطر ببالي فور وصولي إلى العالم الذي انفصلت عنه فترة طويلة، تذكرت أنني كنت قد تركت متاعي معها، شعرت بالاشتياق الشديد لها، لقد أوحشتني تلك الفتاة التي لم أكن لأتم رحلتي لولا مساعدتها، توجهت إلى المطعم الصغير الذي تعمل به، ووجدتها تقدم بعض الأطباق لعدد من الزوار، وما إن رأتني حتى تركت كل ما في يديها وأسرعت نحوي ضاحكة، ضمتني بين ذراعيها وهي تردد بالإنجليزية:

– حمدًا للرب أنكِ بخير، لقد كنت أدعوه دوما أن يحفظكِ، وأن يردكِ لي مرة أخرى..

لم تصدق أبيجيتا أنني قد التقيت بالاما كابير، وأنني قضيت معه كل تلك الفترة، أخبرتني أنني قد فقدت الكثير من وزني، وأن مظهري قد تغير كثيرًا عن ذي قبل وأنني بحاجة إلى ملابس جديدة تتفق مع قياسي الجديد، سألتها عن الفريق الذي كنت بصحبته، أخبرتني أنهم عادوا من رحلة الصعود بعد أقل من شهر، وحينما سألتهم عني أخبروها أنهم فقدوني في منتصف رحلتهم، وظنوا أنني ربما أكون قد التقيت بالصديق الذي كنت أبحث عنه أو ربما أكون قد آثرت العودة دون إخبارهم، وأنهم حينما أنهوا عملهم غادروا موستانغ ولم يعودوا مرة أخرى حتى الآن، بينما كانت هي شديدة القلق عليّ؛ لأنني لم أعد، ولم تأتِ أي أخبار من الجبل تطمئنها عليّ طوال الفترة الفائتة، سألتني عن رحلتي وعما فعلته بها، فقصصت عليها كل ما حدث لي وسط الكهوف مع اللاما كابير بين دهشتها العارمة، وحينما أنهيت حديثي، عرضت عليّ أبيجيتا تناول بعض الأطعمة النيبالية التي أحبها، رفضت بشدة خوفًا من تعرض معدتي للأذى؛ لأنها لم تستقبل طعامًا غير كسرات الخبز والماء منذ فترة طويلة للغاية، فاكتفيت بكوب من الماء، أخذتني أبيجيتا إلى نفس المنزل الذي كنت قد أقمت به عند مجيئي إلى موستانغ بعد أن ردت لي أغراضي التي كانت تحتفظ بها في حجرتها بالمطعم.

لم ينجح صاحب المنزل في التعرّف عليّ بعد مرور فترة طويلة على لقائنا تغيرت فيها هيئتي كثيرًا، نظر لملابسي غير المهندمة والواسعة للغاية والتي يبدو وكأنني قد استعرتها من شخص أكثر امتلاءً مني، بدت عليه علامات الريبة من شكلي الرث،ولكنه وافق في النهاية على إعطائي حجرة في منزله بسبب معرفته الجيدة لأبيجيتا، تجاوز عن ريبته مني بشكل مؤقت وأعطاني المفتاح، لكنه أصر على أن أنقده ثمن إقامتي مقدمًا قبل استلامي للحجرة، ولم يهدأ إلا بعدما أعطيته المبلغ الذي طلبه مني.

توجهت إلى الحجرة وقررت أن آخذ حمامًا دافئًا أزيل به غبار الطريق عن جسدي النحيل، وما إن دخلت المرحاض حتى هالني ما رأيت!

كان المرحاض يحتوي على مرآة طولية تظهر جسد من يقف في مواجهتها بأكمله حتى منطقة الركبة، وحينما نظرت إلى نفسي في المرآة لم أعرفني، كنت قد فقدت أكثر من نصف وزني السابق، وجهي شاحب للغاية وعيناي محلقتان بالسواد، كانت آثار الإجهاد بادية عليّ بشكل كبير، تغيرت ملامحي عن ذي قبل، وأصبحت فتاة جديدة شكلًا وروحًا، تأملت وجهي لقليل من الوجه، رحبت بشكلي الجديد، وتركت المياه الدافئة تنساب فوق جسدي وتغمره في سلام..

كنت أفتقد ملمس المياه الدافئة وشعور الاسترخاء الجميل الذي يلتف حول أجسادنا بمجرد ملامسة الماء له، انتهيت من الحمام الدافىء، ارتديت ملابسي، بحثت عن مصدر للكهرباء كي أمد هاتفي بقليل من الشحن، طالعت التقويم الموجود في الهاتف لأعرف منه في أي يوم أنا، كان التقويم

يشير إلى عام غير العام الذي أتيت فيه إلى موستانغ، وبحساب دقيق للأيام منذ أن رأيت اللاما كابيير إلى اللحظة التي أتيت فيها إلى هذه الحجرة، وجدت أنني قد أمضيت في كهوف موستانغ قرابة الأحد عشر شهرًا، أي ما يقرب من العام.

كانت تلك المدة أطول بكثير من المدة التي تخيلت أنني قد قضيتها مع اللاما، أعدت الحساب مرة أخرى لعلي أكون قد أخطأت، ووجدت أنني لم أخطئ، وأن مدة الأحد عشر شهرًا هي المدة الفعلية التي قضيتها بالأعلى،كان المكان مزودًا بخدمة الإنترنت الهوائي، فأوصلت هاتفي بتلك الخدمة، وما إن اتصل الجهاز بالإنترنت حتى بدأت تطبيقات الهاتف تعمل تلقائيًّا، تلقيت تباعًا عدد من الرسائل والإيميلات التي كانت من بعض زملاء الدراسة وبعض الأصدقاء الافتراضيين عبر الفيس بوك، كان الجميع يسأل عني وعن سر اختفائي وغيابي المفاجئ، فتحت صفحتي الشخصية على الفيس بوك وكتبت عليها لأول مرة منذ أحد عشر شهرًا.

- إلى كل من تساءل عن غيابي في الفترة الماضية، أشكركم جميعًا وأود أن أطمئنكم على صحتي وأخبركم أنني بخير، وسوف أعود قريبًا إلى مصر بروح حكيمة وبوعي جديد، وبفكرة لمشروع إن نجحت في تنفيذها فستكون فكرة العمر".

في الصباح الباكر، بدأت أرتب إجراءات السفر الخاصة بعودتي إلى مصر، افتقدت بيتي الذي قضيت به سنواتي الأخيرة مع بنفسج، وافتقدت فراشي الدافيء، ومكتبة بنفسج وحجرتها وكتبها، يبدو أن الحياة ستعود لتمرر دمائها في شراييني المتصلبة من جديد.

36

(مدرسة الحب والحياة)

اكتشاف الذات، فن السعادة، تمارين روحية..

"تنفَّس بعمق، تأمَّل بصدق، تعش سلامًا حقيقيًّا".

كانت تلك اللافتة هي أول ما يراها من يدخل إلى المدرسة التي افتتحتها فور وصولي إلى مصر، وضعت أسفل اللافتة أيضًا وبخط صغير أخر عبارة قالها اللاما كابيير: ((إن الإنسان مهما يسافر بعيدًا، تبقى رحلته الأهم هي رحلته إلى الداخل، رحلة استكشاف عوالمه الخاصة.. اللاما كابيير)).

حينما عدت لمصر، كنت ممتلئة بالكثير من التجارب، روحي مشبعة بالمحبة وبالرغبة في مساعدة الجميع، رأيت من إفناء ذاتي في كيانات الآخرين المعذبة طريقة مثالية لسعادتي الخاصة ولتكوين روابط قوية مع الكثير من البشر، سأكون أسرتي الجديدة بروابط من محبة لا من دم،

سيجمعنا الألم في البداية، وستغمرنا السعادة في النهاية، ستكون مدرستي ملاذًا لكل من ضاقت به السبل، سأُعلم جميع رواد المدرسة كيفية احتضان الألم والتصادق معه، كيفية التصالح مع الذات وقبولها على عيوبها، كيف أتعرف على شخصي الثاني من خلال الأول، كان إيماني بمعتقدات اللاما كابيير الفكرية يُحركني، علمت أن الإنسان يجب أن يُعطي بدلًا من أن يأخذ وأن يكف عن التقوقع حول ذاته، واهمًا نفسه أنه محور الكون وحده، جعلتني تجربتي الخاصة في موستانغ أشعر بمحبتي الشديدة لكل البشر، وبرغبتي الشديدة في دعمهم بحياتهم، وفي تخفيف ألمهم والاستماع إلى شكواهم من أجل مساعدتهم لتحسين أوضاعهم، كنت أرغب في أن يتذوقوا من نفس النهر الذي نهلت منه حتى ارتويت وكنت أشفق على من لا يمهلون لأرواحهم فسحة من وقت ليكملوا حياتهم دون تعب خاصة أن حياة أغلبهم تحولت لحياه مادية لا روح فيها، أصبح الإنسان في سباق لا نهاية له مع الزمن ومع من حوله، يلهث طوال الوقت ناسيًا ذاته، وما يحبه، ومن يحبهم، تأكل المادة أرواح البشر بالتدريج دون أن يشعروا، يفقد الإنسان معاني لا يعوضها ما يلهث خلفه، ورغم هذا لا يتوقف ولا يستفيق، شعرت أنه من واجبي أن أمد يد العون لهؤلاء الذين لا يشعرون براحة أو سعادة دون أن يعلمون أن العلاج يبدأ من داخلهم من خلال رحلة يقومون بها لاستكشاف ذواتهم من أجل إخراج الطاقة العظيمة الكامنة فيهم، ولهذا أنشأت المدرسة، وجعلت هدفي بث نور المعرفة داخل النفوس المظلمة ومعرفة الحق والروح والهدف من الحياة، ربما كانت الرحلة التي قمت بها سببًا في شفائي مما كنت فيه وربما تكون سببًا في شفاء كل من

سوف ألقاهم خلال حياتي القادمة، لقد عاهدت اللاما كابيير على أن أعيش حياتي بشكل جديد، وهأنذا أوفي بعهدي.

أرسلت رسالة إلكترونية في بداية إعدادي لتلك المدرسة الروحية إلى أبيجيتا، شرحت لها مشروعي الجديد وطلبت منها أن تأتي إلى مصر لكي تساعدني، عرضت عليها أجرًا يفوق الراتب الذي تحصل عليه في المطعم النيبالي الصغير،رحبت أبيجيتا بالفكرة، وكانت سعادتها فائقة حينما علمت أنني أرغب في وجودها معي، وأنني ما زلت أتذكرها وأتذكر الصداقة التي ربطت بيننا حتى أنها قبلت عرضي دون تفكير وفي خلال مدة وجيزة كانت أبيجيتا تستقل طائرة متجهة إلى مصر.

أبيجيتا من ذلك النوع المخلص من الأصدقاء والذي يكون على أتم استعداد لكي يفعل ما يطلبه منه صديقه دون مقابل، وقد أحبت مصر كثيرًا وأعجبت بطعامنا وطرق إعداده، اندمجت مع المجتمع ومع عالم المدرسة لدرجة أنها قررت أن تختار لنفسها اسمًا مصريًا لكي يناديها به الناس،كانت ترى أن أبيجيتا اسم ثقيل على مرتادي المدرسة من المصريين، طلبت مني أن أساعدها في اختيار ذلك الاسم، اخترت لها اسم عاليا، فهو يقترب قليلًا من معنى اسم أبيجيتا والذي يعني المرأة المنتصرة وإن كان لا يماثله تمامًا ف "عاليا" هي المرأة ذات المقام الرفيع والشريف، كنت أنا فقط من يناديها باسمها الحقيقي لأنني لا أستطيع أن أراها في أي أسم آخر غيره، لم تكن أبيجيتا مجرد مساعدة لي بالمدرسة الروحية التي افتتحتها فهي صديقتي الحقيقية الوحيدة، ومحل ثقتي، فقد عرفتها في ظروف صعبة،

ورغم أنها لم تكن تعرفني، لم تتوقف عن مساعدتي وتيسير طريقي، كنت أُكنُّ لها الكثير من المشاعر الجميلة، وأشعر بالعرفان لما فعلته معي في رحلتي بنيبال، أردت أن أعوضها عن فقدان عائلتها الصغيرة بعائلة جديدة أكون أنا أحد أفرادها، بدأتُ في تعليمها اللغة العربية بنفسي حتى تتمكن من التحدث مع رواد المدرسة والتواصل معهم، كانت أبيجيتا طالبة نبيهة وسريعة التعلم حتى أنها بدأت في التقاط الكثير من الجمل باللغة العربية على صعوبتها بل بدأت في استخدامها والتحدث بها معي ومع رواد المدرسة التي بمجرد افتتاحها امتلأت عن آخرها بالمريدين، وكأن البشر بحاجة إلى المساعدة والدعم، وكأنهم ينتظرون من يقدم لهم العون ويرشدهم لاكتشاف ذواتهم وأسرار روحهم، كبرت الأسرة الصغيرة، وصرت أقضي معظم وقتي بالمدرسة ما بين تلقيين الطلبة دروس التنفس أو تمارين التأمل واليوجا أو المحاضرات الفلسفية والروحية متعددة الموضوعات.

الآن أشعر أن بنفسج راضية عما وصلت إليه، لكنني أعلم أنها لن تهنأ في قبرها بشكل كامل إلا بعد أن تطمئن روحها على ولدها الذي لم أفلح في العثور على دليل يقودني إليه رغم بحثي المضني عنه فيما مضى مع السيد جاستين والسيد ليو، كان اختفاء والداي لغزًا كبيرًا في حياتي ما زالت أقف عاجزة أمامه، أفتقد بنفسج، أشم ريحها، أشعر بيديها تربت فوق كتفي، تتجلى لي أحيانًا في لحظات التأمل التي أصبحت أداوم عليها يوميًا مع الطلبة، تنير لي العتمة، وأشعر أن قلبها يحرسني دومًا رغم البُعد، أصبحت أومن أن بنفسج لم تمت فمن نحبهم لا يموتون، تبقى هالتهم المضيئة تحرس

قلوبنا النابضة، وفي هذا المساء قررت أن أبيت في فراشها، لعلي آتنس بوسادة لامست وجهها لعدد من السنون، أوقدت نور حجرتها، وأخذت أتأمل كل ما بها كأنني أراه للمرة الأولى، كانت حجرة بنفسج بسيطة للغاية، تضم فراشًا صغيرًا، ومكتبًا متوسط الحجم، ودولابًا بني اللون، وكرسيًّا هزازًا يقبع بجوار شرفة الحجرة التي تطل على حديقة ذات أغصان باسقة، كان يحلو لها أن تقرأ كتابًا من اختيارها بينما جسدها الرشيق يتأرجح فوق الكرسي الهزاز ذهابًا وإيابًا، تريح عينيها قليلًا من القراءة لترقب الأطفال الذين يلعبون في الحديقة من آن لآخر، شعرت بحنين جارف إلى تلك الأوقات التي قضيتها مع بنفسج، فنحن لا ننسى من نحبهم، لمجرد أنهم غادروا حياتنا وإنما نبقيهم داخل إحدى حجرات القلب، والتي نوقد فيها مصباحًا من وقت للآخر كلما افتقدناهم، نخبرهم كم أحببناهم حينما كانوا معنا، وكم آلمنا هجرهم حينما ابتعدوا عنا، استبدَّ بي الحنين إلى الأوقات التي كانت تقص لي فيها حكايات عن عالم غير العالم، ثم تذكرت الوردة التي جففتها مع بنفسج بين طيات أحد كتبها حينما كنت صغيرة، أخذت أبحث عن الكتاب الذي يحمل تلك الوردة بين صفحاته، ما زلت أذكر اسمه حتى الآن، رواية تحت ظلال الزيزفون للكاتب الفرنسي ألفونس كار، فتشت المكتبة لعلي أجد الرواية، لكنها لم تكن بين بقية الكتب،بحثت في حجرتها كثيرًا لكنها لم تكن في مكان ظاهر، فتحت خزانة ملابسها علها تكون قد وضعتها فيها، مررت بيدي بين جونلاتها القصيرة وفساتينها ذات الألوان الزاهية،أخذت أتطلع إلى أثوابها الأنيقة المرتبة بعناية فائقة والتي تدل على شخصية دقيقة ومحبة النظام، أخذت أتحسس القطع

اللونية البديعة في اشتياق بالغ، وأتذكر المناسبات المختلفة التي كانت ترتدي بنفسج فيها كل ثوب، وبينما أمد يدي داخل الخزانة، إذا بها تنزلق داخل تجويف في أحد جوانبها، حركت يدي داخل التجويف فعادت لتصطدم ببروز مُغطى ببعض الثياب، أزحتها من مكانها لأجد الخزانة مُفرغة في تلك المنطقة التي انزلقت يدي داخلها وأن هناك كوة صغيرة بارزة في المنتصف محكمة الغلق بقفل متوسط الحجم، يبدو أن المصادفة قد لعبت دورها الأكبر في اكتشافي الجديد، وكان لا بد أن أعرف ما يوجد بداخل الكوة، حاولت فتحها لكنها كانت محكمة الغلق بطريقة لم تمكنني من الولوج إليها، أحضرت مطرقة من الخارج، وشرعت في دق القفل علِه ينكسر فتنفتح الكوة، ولكن دون طائل، كررت المحاولة مرة أخرى بينما العديد من الأسئلة تراودني، ترى هل تعد محاولتي لكسر الكوة انتهاكًا لحرمة المرأة التي أحب؟ أعلم أنها قد صارت بين الأموات الآن، وأنه قد أصبحت لي حرية فعل كل ما أريده في هذا البيت بعد أن صار كل ما فيه ملكًا خالصًا لي، ولكن تلك الكوة المنغلقة بقفل لا أعلم مكان مفتاحه تُخبرني بأن هناك شيئًا تريد بنفسج إخفاءه عني، سر لم تطلعني عليه طوال تلك الأعوام الماضية، لقد عشت أعوامًا طويلة، أحمل بداخلي تساؤلات بلا أجوبة، دون أن أجد من يجيبني عليها، وما زلت أحيا دون أن أصل إلى أيٍّ منها، فهل تحمل تلك الكوة داخل جوفها إجابة واحدة مما شغلني من قبل؟

سأفتح تلك الكوة مهما كلفني الأمر، وسأعرف ما بداخلها علني أصل إلى الأشياء التي لم تطلعني عليها بنفسج، أخذت نفسًا عميقًا، واستجمعت كل تركيزي وشجاعتي، تلك المرة سأكسر القفل، ركزت كل طاقتي في يديّ، حملت المطرقة، وبكل ما أوتيت من قوة هويتُ على القفل، وفي تلك اللحظة، حدثت المعجزة، انكسر القفل، وسقط عن مكانه، ألقيتُ المطرقة جانبًا وفتحت الكوة.

كانت الكوة تحتوي على مجلد أنيق وضخم له لون بندقي، معه مجموعة من الأوراق، والعديد من الصور،والرواية التي أبحث عنها، يبدو أن بنفسج كانت تعلم أنني سأبحث ذات يوم عن الوردة التي جففناها معًا، أن تلك الوردة وما هي إلا مفتاح لكشف الكوة..

بدأت أُقلّب في الصور وأنظر لكل واحدة على مهل، كان أغلبها يشير إلى الفترة التي قضتها بنفسج في الهند خلال رحلتها، العديد من الصور لجدتي وهي في ضريح تاج محل الرائع الذي يخلد ذكرى أرجمند، الأميرة التي أحبها زوجها الملك شاه جهان، وقرر أن يجمع رفاتها في معمار هندسي مرمري، وجدت العديد من الصور لبنفسج وهي ترتدي الساري الهندي التقليدي، وصورة أخرى وهي ترتدي فستانًا أحمر اللون مغزولًا بخيوط ذهبية جميلة ومزركشًا بالعديد من النقشات المتداخلة بينما ترتدي في يديها العديد من الأساور العريضة واللامعة وتضع قرطًا كبيرًا يتدلى من أنفها، يقف بجوارها شاب وسيم يرتدي قميصًا لامعًا وفضفاضًا وسروالًا تقليديًا واسعًا وهو يقوم بوضع التيلاك على مقدمة رأسها وفقًا لتقاليد الأعراس

المحلية في الهند، لم أكن قد رأيت جدي من قبل، وكلما سألت بنفسج عن صورة له، تخبرني أنها فقدت جميع الصور في حقيبة بالطائرة العائدة إلى مصر وأنها لم تتمكن من استرجاعها أو العثور عليها، خمنت أن ذلك الشاب الواقف بجوارها في الصورة هو جدي ميرزا، وكان شبهه الشديد بأبي دليلًا يؤكد لي صدق تخميني، قلبت الصورة على ظهرها، وقرأت الجملة المكتوبة بخط بنفسج الذي أستطيع أن أميزه جيدًا..

"ذكرى أجمل أيام حياتي، يوم زفافنا أنا وحبي الوحيد ميرزا".

أخذت أتطلع مرة أخرى إلى الصورة،كانت بنفسج شابة رائعة الجمال، رشيقة القد، وكان جدي ميرزا رجلًا طويل القامة، أسمر البشرة له شعر ناعم وفاحم السواد أورثه لأبي، تابعت مشاهدة الصور، وجدت صورة أخرى تجمع بين بنفسج وجدي ورجلًا ثالثًا،كانت ملامح ذلك الرجل مألوفة للغاية بالنسبة لي، شعرت أنني قد رأيت وجهه من قبل، أخذت ذاكرتيّ تعمل في سرعة في محاولة منها لتجميع الملامح واستعادة شكل صاحبها وترجمتها إلى شخص أعرفه، وفي النهاية تجلت لي صورة اللاما كابيير، لم أصدق عينيّ، هل يُعقل أن يكون هذا الرجل الواقف بجوار جدتيّ هو اللاما كابيير في شبابه، يا إلهي! هل يعلم اللاما كابيير بنفسج وجدي ميرزا أيضًا؟ عدتُ لأدقق النظر في ملامح الرجل مرة أخرى، وتأكدت أنه اللاما كابيير وهو في ريعان شبابه، لم أصدق عينيّ، هل كانت بنفسج صديقته حقًا مثلما قالت لي في المنام؟ ولماذا لم تحدثني عنه من قبل؟ لماذا أخفت عني سر الصداقة التي جمعتها به ذات وقت؟

قلبت الصورة على ظهرها، ثم وجدت عليها جملة واحدة مكتوبة:

" ميرزا، بنفسج، كابيير.. أصدقاء إلى الأبد".

الآن تيقنت بنفسي مما رأيت وأدركت أن هناك صداقة جمعت بين ثلاثتهما ذات يوم، كان هناك العديد من الصور التي جمعت بين بنفسج وجدي وكابيير في مدرسة تدعى مدرسة براناياما وهي إحدى المدارس الروحية في الهند والتي تُعلي من قيمة التنفس وقدرته على التحكم في الجسد، وهذا ما جعلني أدرك أن بنفسج قد خاضت تجربة مشابهة لتجربتي من قبل.

انتهت الصور التي كشفت لي العديد من الحقائق التي لم أكن أعلمها، أخذت أتأمل المجلد الذي عنونته جدتي تحت اسم "حكايات العشق"، تصفحته سريعًا لكي أعرف محتواه، كان خط بنفسج حاضرًا في جميع الصفحات، أدركت أن هذا المجلد ما هو إلا مذكرات جدتي التي لم أرها يومًا تكتبها أمامي، ترددت قليلًا قبل أن أفتح الصفحة الأولى من المجلد، إلا أنني في النهاية قررت ألا أتذوق طعمًا لنوم، قبل أن أقرأ كل تلك الأوراق التي بين يديّ وقبل أن أعلم كل حكايات بنفسج التي لم ترد لي أن أعلم أيًا منه، أخيرًا أتت لحظة الكشف!

***

37

حكاية العشق الأولى والأخيرة.

عزيزتي هالي:

حينما تصلين إلى تلك الصفحة من مذكراتي الشخصية، تكونين بذلك قد قرأتِ كل الأوراق التي كتبتها على مدار حياتي، ووقتها سوف تكونين قد عرفتِ عني كل شيء أكثر من ذي قبل، وسيزول عنكِ الكثير من الإبهام والغموض الذي طالما عانيته، هذه الصفحات ستجعلك تشاركينني أجمل ذكريات حياتي وأحلكها، كما أنكِ بلا شك ستكونين قد علمتِ قصة عشقي الكبيرة لجدكِ ميرزا، وكيف أننا تحدينا بهذا العشق العظيم كل تقاليد عائلته شديدة الثراء، والتي كانت لا تقبل زواج رجالها من نساء من خارج الهند، حفاظًا على تقاليد العائلة الدينية والمجتمعية وعلى إرثها الضخم وممتلكاتها، وصلت عائلة ميرزا في منعها لأي زيجة لا تقبلها إلى حد التحريم والنبذ بل القتل لكل من يخالف تعاليم عمهم الأكبر الذي كان

يتخير بنفسه زوجات أبناء العائلة،وعلى الرغم من طيبة أهل الهند الشديدة إلا أنني قد وقعت مع تلك العائلة التي جرمت قصتنا، ولم تباركه، كان حبنا إثمًا ارتكبته قلوبنا في حق عائلة ميرزا التي كان سيفها يسبق كلمتها، وغضبها يسبق لينها، خاصة مع ذلك العم الذي يقدس المال أكثر من البشر، ويُطاع طاعة عمياء تجعل من ذنب قول لا جرمًا يستحق القتل.

التقيت بميرزا في أثناء رحلتي للهند،كنت مولعة بالفلسفة الهندية وكنت أرغب في زيارة هذه البلدة، وكانت تلك الرحلة هي طلبي الوحيد من أبي والذي كافأني بها بعد انتهاء دراستي الجامعية، لم يبخل عليّ بتلك الرحلة التي تمنيتها، وحينما ودعني في المطار لم يكن يعلم أنه لن يراني إلى الأبد، وأن الأقدار تخبئ لي بين دفاترها الكثير من الأحداث.

لقد كنت بالنسبة إلى عم ميرزا فتاة مصرية غريبة، لها ثقافة مختلفة تمامًا عن ثقافة بلدهم و التي يعتزون بها كثيرًا، فتاة لا تعلم شيئًا عن عادات الهند أو تقاليدها، ورغم كل هذا فإن الحب لم يمنع جدكِ من أن يقترن بي رغمًا عن عمه الذي يدير إرثه بعد وفاة والد ميرزا، ضاربًا بذلك تقاليد العائلة الصارمة عرض الحائط، لم يشفع حبنا لدى عمه التي طالبه في البداية أن يبتعد عني ويتركني، وأن يعود إلى صوابه، إلا أن ميرزا رفض أن يتخلى عن حبه لي وحتى حينما هدده هذا العم القاسي بحرمانه من إرثه الضخم، لم يبالِ، وحينما زاد في وعيده له بأن يقتله عقابًا له على إثمه، أخذني بعيدًا عنهم وهربنا، وفي تلك الفترة ظهر كابيير في حياتنا، التقينا به في أحد المطاعم الصغيرة، كنا في حال يرثى لها بين الخوف والضياع، لم نكن نعلم

كيف سنفر بحبنا إلى مكان آمن، قصصنا حكايتنا عليه، فتعاطف معنا، كان وقتها كابيير طالبًا في مدرسة برانايايما، وكان يخطو خطواته الأولى في المسلك الروحي، عرض علينا أن يأخذنا معه، ولم يكن أمامنا طريق آخر، فوافقنا، وهناك في تلك المدرسة تعلمت الكثير من رجال الحكمة وخضت العديد من تجارب التأمل ورأيت ما لم أره من قبل في هذا العالم الطاهر والخال من شوائب الدنيا ودنسها كما قرأتِ في الصفحات الفائتة، كانت المدرسة في منطقة نائية تمامًا، ولم نفطن إلى أن عم ميرزا بعلاقته قد ينجح في الوصول إلينا،كانت يد عمه طائلة، وما زاد حنقه هو هروب ابن أخيه عن التقاليد التي وضعها، خشي أن يتبعه غيره من أبناء العائلة في فعلته، فقرر أن يجعل من ميرزا عبرة لهم تمح من تفكيرهم أي محاولة لمحاكاته أو الخروج عن طاعته، لا سيما بأنه كان يُمني نفسه بأن يزوجه من ابنته الكبرى بوجا، ولذلك فقد أعتبر هروبه خيانة كبرى له، زادته حنقًا ورغبة في تنفيذ وعيده وفي اجتثاث جذوره من شجرة العائلة، ولا أعلم كيف وصلوا إلينا، كنا في إجازة قصيرة من المدرسة، نسير متلاصقين ونفكر فيما سنفعله بمستقبلنا، عرضت على ميرزا أن يعود معي لمصر، وقبل أن يجيب انهالت فوقنا طلقات نارية ضارية، أصابت إحداها كتف ميرزا اليسرى، حماني بجسده، وطلب مني أن أركض بعيدًا كي يتحدث مع رجال عمه، توسلت إليه أن أبقى معه، إلا أنه لم يوافق، وجد لي مخرجًا من طلقاتهم، ويسر لي سبيل الفرار، عُدت إلى المدرسة، انتظرت عودته، لكنه لم يأت كما وعدني، لم أتخيل أن عم ميرزا سيصدق في وعيده وأنه سيرسل إليه من يقتله، خشيت أن يكون ميرزا قد تخلى عني وعاد معهم وتركني، ولكن بعد عدة

أيام أتاني كابيير بخبر مقتله في نفس اليوم الذي تركته فيه بل في نفس المكان، نزل الخبر عليَّ كصاعقة، كيف لعم أن يقتل ابن أخيه؟ كنت أظن أن هذا النوع من التعصب لا يوجد إلا في صعيد مصر فقط، لم أكن أعلم أن الكره والجشع والتعصب لا مدينة لهم، بل يسكنان في قلب كل ضعيف، نفذ العم قسمه، وأردى ميرزا قتيلًا، قتل روحي معه، مات حبيبي دون أن يعلم أنني أحمل في أحشائي قطعة منه، وأن أحد أوقات نشوتنا شاء لها القدر أن تُسجل إلى الأبد، لتصير صبي مليح كأبيه، كان وجود فؤاد بداخلي هو الأمل الوحيد لي في البقاء، لقد أحببت ميرزا حبًّا كبيرًا لم أستطع أن أمنحه لأحد من قبله ولا من بعده، وعلى الرغم من إنكثامي الشديد على فقده، قررت أن أحيا على ما تبقى منه، تلك المضغة الصغيرة بداخلي والتي كانت تكبر يومًا بعد يوم.

تولى كابيير رعايتي، ولم يقصر قط معي، فوجئت بعرضه للزواج مني كي يتمكن من حمايتي وإعطائي الرعاية اللازمة، لم أستطع أن أكون لأي رجل آخر بعد ميزرا،رفضت عرضه، وطلبت منه أن نبقى أصدقاء، فرباط الصداقة لا ينقطع، كنت أعلم أن عم ميرزا سيبحث عني وسيعثر عليَّ مرة أخرى مثلما فعلها من قبل، لا سيما إذا علم أن ميرزا لم يمت بشكل كامل وأن ابنه الصغير آت في الطريق، سيخشى أن يكبر الابن ويسعى للانتقام أو يطالب بإرثه الضخم من تركة ابيه ذات يوم، تركت المدرسة، وعثر لي كابيير على مكان بعيه اختبأت به حتى ولدت فؤاد بعيدًا عن الأعين، طلب مني كابيير أن أكمل معه في المدرسة الروحية لأترقى وأصير معلمة للطلبة

الجدد مثلما ينوي أن يفعل، إلا أنني لم أشأ أن أكمل حياتي في الهند وعدت بفؤاد إلى مصر، لم أستطع العودة إلى أبي بعد أن تزوجت دون علمه مدفوعة بعاطفتي، وبعد أن قُتل زوجي، وغبت أشهرًا طويلة وأنجبت طفلًا صغيرًا، كيف أواجهه بكل تلك الأمور؟ خشيت العودة لبيتي كي أحمي فؤاد، لا شك أن عم ميرزا سيبحث أول ما يبحث عني في مكان إقامتي بمصر مع أسرتي، قررت أن أربي ولدي بعيدًا عن كل من أعرفهم، كان فراق الأهل صعبًا خاصة وأنا في أمس الحاجة إليهم، لكنهم لم يكونوا ليقبلوا بأية حال من الأحوال حقيقة زواج ابنتهم دون معرفتهم، ولن يرحبوا بي وأنا آتية إليهم بطفل صغير أحمله بين يديّ وأخبرهم أنه ابني، لست مريم العذراء لكي أفعل ذلك، وحتى مريم على طهارتها لم يقبل منها قومها تلك الفعلة، لقد آثرت ألم الوحدة ونيران الاشتياق وسنوات عديدة من البعد، على ألا أؤذيهم أو أؤذي صغيري بفعلتي، لا أعلم هل كنت مخطئة في قرار زواجي من ميرزا؟ ولا أعلم هل كنت مخطئة في قراري بالابتعاد عن أسرتي؟!

كل ما أعلمه أن حبي كان كبيرًا، وأن إثمي في هذا العالم كان بمقدار حبي، كان على أن أدفع ثمن كل لحظات السعادة النادرة التي جاءت كومضات خاطفة في حياتي أبد الدهر، وحدي دون أن أشرك أحدًا في قصتي أو أنقل إليه عدوى لعنتي.

مرت الأيام وصار صغيري شابًا يسألني كل صباح عن والده، ويسألني كل مساء عن بقية أسرته، كان يحاصرني بوابل منهمر من الأسئلة، لم يكن يعلم لماذا أخشى عليه من كل ما حوله؟ ولماذا أمنعه من تكوين صداقات

مع رفاقه؟ ولم كل هذا الغموض الذي يحياه في كنفي؟ كان كثير التساؤل مثلكِ يا هالي، حتى كدت أن أخسره في إحدى ثوراته العارمة تجاه حياتنا، أخبرته بكل شيء، وحينما عرف أنني كنت أسعى طوال تلك الأعوام لإخفائه عن الأعين خوفًا من أن تمتد إليه يد عم والده، ترك المترل لعدة أيام دون أن يخبرني عن مكانه، وحينما عاد أخبرني بفتاة يحبها تدعى جميلة، وأنه قد صارحها بقصته كاملة، وأنها رغم كل ما عرفته عنه، ما زالت متمسكة به، كنت ضعيفة أمام العاطفة، ولم أكن أرضى لقلب وحيدي أن ينكسر خاصة وهو فيه ما فيه، كنت أعلم كيف يسكننا الحب ويُغرقنا فيه حتى الثمالة فقد جربته من قبل، وما زلت أتجرع من كأس التجربة، باركت زيجته شريطة أن تقبل عائلتها بي وبه كأسرة كاملة دون مزيد من الأسئلة عن بقية العائلة، عرفت منه أن جميلة يتيمة مثله، لا أب لها ولا أمَّ، وأن ظروف حياتها تتشابه إلى حد كبير مع ظروفه وأنها قد فرت من مترل خالتها التي كانت تسئ معاملتها حينما أنهت دراستها الجامعي لكي تحيا حياة مستقلة بعيدًا عن كل الضغوط التي مارستها عليها تلك الخالة طوال أعوام إقامتها معها، كانت جميلة من أسرة ثرية، وقد تركت لها والدها قبل وفاتها تركة لا بأس بها، وقد نجحت جميلة في استرداد أكبر قدر منها بعد مدة طويلة من المعارك القانونية بينها وبين تلك الخالة التي كانت ستلتهم كل تركتها دون أن تعطيها منها شيئًا.

لم أنس صديقي كابيير وكنت دائمة التواصل به رغم بعد المسافات بينا، وفي أحدى المساءات جاءني اتصال منه من الهند ليحذرني من أن هناك فرد من عائلة ميرزا علم أنني كنت أحيا ذات يوم في مدرسة براناياما الروحية التي ما زال يعمل بها، وقد أتى بنفسه ليسأل عني، وأن هناك من أخبره بأنني أنجبت صبيًّا من ميرزا، ولا شك أنه سيبحث عني أنا وفؤادًا في كل مكان، كنت أعلم أن عم ميرزا لن يتوقف عند هذا الحد بل سيرسل رجاله مرة أخرى ليجتثوا نبتة صغيري لأنه لن يسمح لغريب أن يأخذ من تركته ولو روبية واحدة، بلغ بي الخوف مبلغه على فؤاد، وخشيت أن تمتد إليه يد عم ميرزا بسوء، رجوته أن يرحل بعيدًا كي لا يتمكن أحد من الوصول إليه، كان لفؤاد صديقًا أمريكيًّا بالمراسلة يُدعى جاستين والذي جلب له عملًا في مقاطعة مينيسوتا من فترة، إلا أن فؤادًا لم يكن يفكر في السفر في ذلك الوقت، ولم يكن يرغب في أن تعيشين بعيدًا عن مصر، ولذلك فقد رفض هذا العمل حينها، إلا أنني حينما وجدت الخطر يحيق به طلبت منه قبول العمل في مينيسوتا والسفر إلى هناك، ألححت عليه كي يسافر ويحمي نفسه ويحميكِ، لكن كان حرصه على حمايتي وحمايتك أكبر، رفض في البداية، حتى أجبرته على تركنا، وبالفعل سافر فؤاد هو وجميلة التي لم تتخل عنه قط، أما أنا فقد غيرت مكان إقامتي، وطلبت منه أن يتركك معي، وألا يخبر أحدًا حينما يسافر أن لديه ابنة صغيرة، كان جاستين بحكم صداقته لفؤاد هو الشخص الوحيد الذي يعلم أن فؤاد أب لصغيرة تدعى هالي، ولكن ولدي أذاع عن نفسه بين الناس أنه عقيم ولا يستطيع الإنجاب حتى إذا توصل إليه أحد ذات يوم من عائلة والده، لا

يفكر في أن يبحث عنكِ يا حبيبتي، ولا يرد بذهنه أن له نسلًا، لقد فضل والدكِ الرحيل عنكِ ليحميكِ، وارتضى لنفسه أن يحسبه الناس عقيمًا في مجتمعه الجديد خشية أن يعلم أحد أن له صبية جميلة مثلكِ،لقد كان والدكِ يحبكِ كثيرًا يا هالي، ولم يشأ أن يتركَكِ قط، إلا أن ظروف الحياة كانت أقوى من حبه ومن رغبته في أن يراكِ تكبرين أمامه مثل أي ابنة تتربى في كنف والديها، تحمّل نقمك عليه وكرهك له، ولا أن تمتد إليكِ يد بأذى، كان يقول لي دائمًا لأن تصل إليَّ يد الموت أهون من أن تصل إلى ابنتي الوحيدة، كان فؤاد يعلم أن رجال عم والده إذا وصلوا إليه ذات يوم، سيقتلونه ويقتلونكِ بلا هوادة، وأنهم لن يصلون إليكِ ما دمت لست معه، ولهذا فقد عاش بعيدًا، وربما يكون مات وهو يحافظ على حياتكِ التي كانت أثمن لديه من أنفاسه، أما أنا فقد أشعت في المكان الجديد الذي انتقلنا إليه في تلك المرة أنكِ ابنة شقيقي الراحل ولستِ ابنة ابني، كنت لا أفصح عن الحقيقة إلا في الأوراق الرسمية فقط حينما اضطررتُ لذلك، كنت أسعى لإبعاد الأعين عنكِ، ولهذا لم أكن أرحب بالصداقات أو العلاقات العميقة التي قد تدفعني إما إلى الكذب الذي لا عمر له وإما إلى قول الحقيقة التي قد تقضي على عمركِ، ولم أكن أقوى على أيهما، فقد كنت امرأة وهن منها العظم واشتد في شعرها الشيب، ولا فائدة تُرجى من انتهاء حياتها، أما أنتِ فينبوع الشباب النابض الذي كنت أخشى على توقفه أكثر مما أخشى على أيام تبقت لي أعلم أنها لن تكون بقدر ما مر من عمري، انغمست في تربيتكِ وفي الحفاظ عليكِ، كنت لا أجد راحتي إلا في القراءة وبث مشاعري وألمي على الورق الذي تحملينه بين يديكِ الآن،

مرت عليَّ الكثير من الأيام الصعبة وشفقة كبيرة تتملكني كلما وجدتكِ تكبرين وحيدة، وكلما رأيت الحياة التي تحيينها مع امرأة عجوز مثلي، وكنت كلما ألبست نفسي حذاءكِ، استقبحتُ تلك الحياة الخالية من الحياة، فلا عائلة كبيرة لديكِ، ولا أصدقاء تتسامرين معهم،وحدها الوحدة تتخلل كل فراغات أيامكِ، في كثير من الأوقات كنت سأخبركِ بكل شيء لكي أريح روحي المتألمة بسبب ما فعلته فيكِ وفي فؤاد، لعلكِ تعذرين، ولكنني لم أكن أقوى على الاعتراف أمامكِ، كنت أترفق بسنوات عمركِ التي قد لا تستطع استيعاب كل هذا الكم من الهموم،أنتِ الرقيقة والجميلة في آن واحد، والتي يحق لها أن تسعد بكل شيء، ورغم هذا لا أستطيع أن أمنحها السعادة التي تستحقها، كم كنت أتعذب وأبكي كثيرًا،لكنني كنت أحرص على ألا تري تلك الأوقات التي تنتابني فيها نوبات الضعف، لذلك فقد كنت أغلق باب حجرتي على وأبكي ثم أفرغ كل ما بداخلي في ذلك المجلد الذي كنت أعلم أنكِ سوف تجدينه في الوقت المناسب، في الوقت الذي تستطيعين فيه استيعاب كل هذه الحقائق المؤلمة.

قلبي يحدثني أنه ربما يكون ولدي قد مات، وأنني لن أقوى على الحياة وسط كل هذا الكم من الألم بعد الآن، ربما أتركِكِ وحيدة بموتي، إلا أن بنفسج المثخنة بالجراح لم تعد قوية لتتحمل مثل ذي قبل، بنفسج لم تعد تقوى على تحمل حياة الخوف والتخفي أكثر من ذلك، بنفسج فقدت حبها الوحيد ميرزا وابنها، وما تبقى من عمرها لا يمكنه أن يتمدد لمزيد من الألم، ربما لم أستطع أن أعلمكِ الكثير، ولكنني أوصيت كابيير أن يُنهي ما كنت قد بدأته معكِ، أثق أن الرجل الذي عاش حياته بلا زواج من أجل

حب مستحيل، الرجل الذي عاش في الصحارى، وتسلق جبال الرهبة وحده، وقاتل كل المعاني الدنيوية داخل نفسه حتى تغلب عليها، يستطيع أن يعلمكِ ما لم أعلمكِ أنا، أحبكِ يا هالي..

المعذبة / بنفسج))

***

38

أحيانًا يعتقد الإنسان أنه قد اقترب مما يريد، لكن سرعان ما تحدث أشياء تغير له كل ما حوله من جديد، كانت هناك أسئلة كثيرة تكاد أن تسقط رأسي، كنت أريد أن أعرف ولو شيئًا بسيطًا يجعلني أطمئن عمن غاب عن الحياة، ولكنني منذ أن أنهيت قراءة المذكرات، وقراءة آخر جواب كتبته بنفسج لي، والدمع في عينيّ لا يتوقف عن الانهمار، مثل سحابة ظلت تنوء بحمل المطر، وحينما هزتها الرياح قليلًا لم تملك إلا أن تفرغ ماءها، يا الله! كانت بنفسج تعلم أنني سوف أصل إلى مذكراتها، وأنني سوف أقرؤها، ولهذا كتبت لي هذا الجواب الطويل والذي شرحت لي فيه كل شيء!!

كانت بنفسج ترغب في أن تكشف لي السر بنفسها في الوقت المناسب والذي أستطيع أن أفهم فيه كل القصة، الآن فقط أدركت المعنى من كلمتها الدائمة لي،أنتِ أصغر من معرفة الحقيقة، وذلك حينما كنت أسألها عن سبب ترك أبي لي معها، وعن سبب طلبها الدائم بألا أخبر أحد بأنها جدتي وأن أستمر في ترديد أكذوبة أنني ابنة أخيها

الآن عرفتُ معنى إجابتها المبهمة حينما كانت تردد، ستعرفين الإجابة حينما تتمكنين من الفهم.

كنت أتضجر من كلماتها، ويضيق صدري بغموضها في السنوات الأخيرة، ولكنني الآن بعد أن عرفت أن القصة أكبر منها ومن أبي صرت ألتمس لها ألف عذر وعذر..

لقد عشت أعوامًا عديدة وأنا ناقمة على رحيل أب منعت حبه من أن يتسلل لقلبي بكامل إرادتي، ربما كنت أجد مشاعر الكراهية وقتها هي الانتقام المناسب منه، كنت أرى من مقتي له وسيلة أعذبه بها، فما من أب يتحمل كراهية ابنته الوحيدة له مهما كان لا يأبه بها ومهما يكن يعيش بعيدًا عنها، كنت سخية في كراهيتي له، وكلما شعرت بعذابه أعطيته المزيد من الكراهية ليتعذب أكثر هو وجميلة، لم أترك له الفرصة الكافية ليتحدث معي أو يخبرني بحقيقة الأمر،صممت قلبي عنه، وحمّلته ذنب هجره لي دون أن أفهم أنه لا يد له فيه، وأنه يرحل عنى لكي يضيف أيامًا إلى عناقيد عمري.

وعند لحظة روحية صافية، سامحته هو وجميلة دون أن أعرف السبب وراء غيابهما المستمر، سامحتهما على شيء لم يكن عليّ أن ألومهما عليه منذ البداية، إلا أن رؤيتي الناقصة التي لم تكن ملمة ببواطن الأمور هي التي جعلتني أحيا أعواما عديدة من الألم، أتجرع الكراهية وأسكب منها عليهما، لو عرف الإنسان كل شيء، لاستطاع أن يقدّر كل شيء، ولكننا لا نعلم ولا نقدّر، نتعذب ونعذب من يحبوننا، نسير في الحياة ونتفاعل مع الكثير

من الأحداث ونتوهم أننا نحيط بكل شيء، ولكن كثيرًا ما تفاجأنا الأقدار بتفسيرات عديدة ومعلومات مختبئة في ثنايا الرحلة التي نخوضها، فالذي حدث لي في رحلتي كان لا بد أن يحدث حتى أتعلم أن إحاطتي لم تكن كاملة وأن علمي منقوص وأن رؤيتي ضيقة وأن البشر يصعب الصبر عليهم بكل ما لا يستطيعون له فهمًا.

الآن عرفت من هو اللاما كابيير، وكيف كان يعرفني دون أن أعرفه، الآن عرفت من هو جدي ميرزا، ولماذا كانت تخفي بنفسج عني حقيقته طوال ذلك الوقت، يا الله!! كيف تحملت بنفسج أن تحيا كل تلك الأعوام في ظل هذا العذاب؟ كيف تحملت موت حبيبها؟ وكيف تحملت الحياة بعيدًا عن أسرها؟ كيف استطاعت أن تُربي ابنها وهي تخشى عليه، كيف تركته يرحل عنها رغم حبها الشديد له؟ كيف استطاع أبي الحبيب أن يتحمل رحيله عن ابنته الوحيدة كل هذه الأعوام؟ كيف استطاع أن يتحمل هو ووالدتي نظرتي لهما طوال ذلك الوقت وصدي الدائم لهما؟ كيف اتسع صدرهما لحماقات جهلي؟ لو أن كل تلك الأحداث قرأتها في كتاب أو شاهدتها في عرض سينمائي لما صدقتها! فكيف أستطيع أن أستوعبها مُجتمعة في حياتي؟ لقد كانت بنفسج أشجع امرأة عرفتها في حياتي، لأنها تمكنت أن تحيا وسط كل الكم من الألم، وسط كل تلك الأحداث الدامية، ولأنها استطاعت أن تصمد وحيدة بقدر عدد سنوات عمرها بين الخوف والفقد، بين الترقب والصمت، بين كتمان ما لا يقدر عليه إنسان رغم صراع رغبة البوح البشرية داخلها..

لم أفق من أفكاري إلا حينما شاهدت خيوط الشمس الذهبية وهي تتسلل عبر نافذة حجرة بنفسج لتعلن عن مجيء الصباح..

39

حاولت أن أستأنف حياتي بعد كل ما عرفته بشكل طبيعي، لكنني لم أتمكن من العودة لحالة السلام التي أنفقت من أجل الوصول إليها العديد من الأشهر في كهف بعيد عن الأعين مع الرجل الذي أحب بنفسج حبًّا كبيرًا دون أن أدري أنه يفعل كل ذلك وفاءً للحب الذي تملكه دون أن يستطيع الشفاء منه!

استبدت بي رغبة جامحة في أن أسافر إلى اللاما كابيير كي أتحدث معه، وكي أعرف منه المزيد عن تلك الفترة التي قضتها بنفسج معه في الهند، كنت أريد أن استمع إليه وهو يعيد إحياء بنفسج بكلماته ومشاعره عنها، لم أتعجب من أن اللاما كابيير لم يتحدث معي بشأن ما يعلمه رغم معرفته بعدم علمي له، لم تكن هناك طريقة للوصول إليه، فهو لم يُعلمني بمكانه، ولا بوسيلة ترشدني إليه، ولذلك فقد أخذت أفكر في طريقة توصلني به مرة أخرى.

الآن أكاد أجزم بأن ما حدث لوالديّ لا بد أن يكون جريمة قتل مدبرة، فقد رآهما رفيق العمل السيد روبرت في آخر مرة شاهدهما فيها يسيران برفقة رجل هندي لا يعرفه أحد، ومن وقتها وقد اختفى أبي تمامًا عن الدنيا حتى أن الشرطة لم تستطع أن تعثر له على أثر، ارتفعت رنة هاتفي لتقطع حبل أفكاري،التقطت الهاتف من جواري،ونظرت في شاشته.

كان المتصل هو السيد ليو والذي أخبرني في آخر مكالمة دارت بيني وبينه قبيل وفاة بنفسج بقليل بأنه لا يوجد أثر لوالديّ في أي مكان وأنه سوف يتصل بنا في حالة توصله لأي معلومة جديدة قد تفيد في العثور عليهما أو في حل واقعة اختفائهما، بدفقة مباغته من الأدرنالين في سائر جسدي، كاد قلبي أن يقفز من موضعه، كنت أخشى أن أسمع خبرًا صادمًا من السيد ليو لا أقوى على تحمله، رغم أنني أصبحت أفهم كل شيء الآن، وبكل خوف الدنيا رفعت سماعة الهاتف وأجبت..

***

40

كانت الرحلة إلى ولاية مينيسوتا طويلة، بطول ليل حزين يعلم أنه ما من شروق قادر على أن ينير عتمته، وأنه حتى لو طلعت عليه ألف شمس فسيظل على حاله.

كان عليَّ أن أقوم بتلك الرحلة وحدي، مثلما قمت بالرحلة التي سبقتها من قبل وحدي، لكن الغموض كان يلف رحلتي الأولى؛ لأنني ما كنت أعلم بمن سوف ألتقي، وما الذي سوف تخبئه لي الأقدار هناك، أما في تلك الرحلة فالحزن هو رفيقي الأول لأنني أعلم أين سأذهب وبمن سألتقي، وما الذي سوف أفعله حينما أصل، فعقب المكالمة الهاتفية التي دارت بيني وبين السيد ليو علمت منه أن الشرطة قد وجدت رفات جثتيّ فؤاد وجميلة داخل سيارة متدحرجة من فوق قمة جبل عالٍ في أطراف الولاية، وقد اكتشفت الشرطة هذا الأمر بعد فترة طويلة، لأن السيارة كانت محشورة في أسفل الجبل بمنطقة نائية وبعيدة عن الولاية وقد قُيد الأمر على أنه حادث اصطدام لأنه لم يكن هناك أية إشارة تدل على وجود

شخص ثالث معهما بعد الكشف عن مكان الحادث، أخبرني أن الشرطة ستتصل بي لتخبرني بكل شيء،لكنه أراد أن يفي بوعده في إخباري بمستجدات الأحداث، وبالفعل لم تمض ساعات قليلة حتى وأتاني رقم من الولايات المتحدة الأمريكية لأجد الشرطة تخبرني بنفس ما أخبرني به السيد ليو..

كان عليَّ السفر لكي أشهد دفن رفات والديّ، ألقي على قبرهما التحية وأضع باقة بيضاء من الورد أعلاه، أترحم عليهما وأطلب منهما العفو على كل ما فعلته في حقهما في أثناء حياتهما، كنت أضعف من مواجهة هذا الأمر وحدي، ولم يكن لديّ من ألجأ إليه في هذا الوقت سوى اللاما كابيير، لم أكن أملك طريقة للوصول إليه،ولكنني تذكرت أن بنفسج قد دونت عنوان مدرسة برانایاما التي كان هو طالبًا بها مع بنفسج وجدي ميرزا التي ذكرت بنفسج في مذكراتها أنه قد عمل بها فيما بعد، بقليل من البحث عبر جوجل، علمت البريد الإلكتروني للمدرسة، وأرسلت إليها بريدًا إلكترونيًّا أسأل فيه عن اللاما كابيير وعما إذا كان ما زال يعمل بها أم لا، وهل لديهم عنوان ثابت له؟ جاء رد المدرسة بأن اللاما كابيير هو من يدير المدرسة في الوقت الحالي، وأنه ما زال يقوم بتدريب بعض من مريدي المدرسة الجدد أيضًا، طلبت منهم أن يوصلوا له رسالتي للأهمية القصوى، وكتبت له رسالة أخبرته فيها بكل الأمور الجديدة التي حدثت، طلبت منه أن يكون معي في مينيسوتا لكي يشيع معي جثمانيّ والديّ، جاء رد اللاما كابيير مقتضبًا:

- ((لم أشك قط في ذكائكِ،كنت أعلم أنك ستعثرين عليَّ، تعازيّ الحارة، سوف أكون هناك قبلكِ)).

حينما علمت أبيجيتا بالأمر طلبت مني أن تأتي معي إلا أنني رجوتها أن تبقى بمصر لكي تهتم بأمر المدرسة لحين عودتي من السفر، أرسلت بريدًا إلكترونيًا إلى السيد جاستين صديق والدي لكي أخبره فيه بموعد قدومي إلى مينيسوتا لكي أشيع رفات والديّ وطلبت لقاءه هو الآخر..

صدق اللاما كابيير فيما قاله لي، فقد كان وجهه هو أول وجه يطالعني لدى وصولي إلى مينيسوتا، ركضت نحوه، وتعلقت برقبته، كنت أشعر بافتقادي الشديد له وحاجتي الكبيرة إليه، كما أنني كنت أشعر بأنه الشخص الوحيد المتبقي لي في هذا العالم بأسره، ولذلك فقد شعرت بطمأنينة شديدة أزالت عن قلبي الكثير من القلق والخوف فور رؤيته.

كان ما قرأته عنه في مذكرات بنفسج قد قربني منه أكثر، شعرت بأن ما يربطني به أقوى من رابطة الدم الذي ينكره الأهل في كثير من الأوقات، ربت اللاما كابيير على رأسي بحنو بالغ، وقال لي:

- تذكري أن كل ما تعلمتيه مني في رحلتكِ يهيئكِ لملاقاة كل موقف صعب تلقينه في حياتكِ..

أجبته بين دموعي:

- أعلم جيدًا يا سيدي كل ما تود أن تخبرني به، ولكن المواقف قد تغلبنا أحيانًا..

أخبرني قائلًا:

- نحن من نغلب المواقف على صعوبتها، لأننا من يتحكم في حياتنا يا هالي.

***

41

وضعتُ باقة كبيرة من الورود البيضاء فوق قبر والديّ، أخذت أتذكر المواقف القليلة التي جمعتنا، تذكرت أيضًا كل لحظات الجفاء التي بدرت مني تجاههما والتي كانا يتحملان فتور عاطفتي نحوهما والطريقة التي كنت ألقاهما بها حينما أراهما، تذكرت الأوقات التي كنت أهرب فيها من التحدث إليهما، ثم تذكرت كل ما فعلاه من أجلي دون أن أعلم، بكيت كثيرًا على كل ما كان، ولم يمنعني حضور كُلٌّ من اللاما كابيير أو السيد جاستين في تلك اللحظة المهيبة من أن أحبس دموعي، تركتها تنهمر بحرارة، فبعض الدمع راحة كبرى للقلوب المكلومة، وبعض الدمع يطهرنا من مساوئنا وآثامنا، وبعض الدمع يغسلنا من الداخل بالماء والبَرد.

لم أكن قد التقيت السيد جاستين من قبل إلا أنه أصر أن يكون معي في ذلك اليوم احترامًا لعمق الصداقة التي جمعت بينه وبين والدي ولتقديره لشخصية والدي، وحينما انتهت مراسم الدفن عرض عليَّ السيد جاستين أن يقدم لي أية مساعدة أريدها غير أنني شكرته ورجوته أن ينصرف

وأخبرته أنني سوف أعيد الاتصال به ليساعدني على تصفية ممتلكات والديّ بمينيسوتا، كنت أرغب في المكوث بحضرة والديّ قليلًا كذلك كنت أرغب في التحدث مع اللاما كابيير دون أن يكون أحد معنا في تلك اللحظة، انصرف السيد جاستين وتركني مع اللاما كابيير بعد أن أخبرني بأنه سينتظر مكالمتي، عادت دموعي لتنهمر مرة أخرى بلا توقف فامتدت يد اللاما كابيير لتساعدني على النهوض من الأرض.

قلت له:

– لماذا لم تخبرني بكل شيء حينما كنا في موستانغ؟ ولماذا كان اللقاء في موستانغ تحديدًا؟

أجابني قائلًا:

– لقد علمتي وحدكِ كل شيء حينما أتت لحظة الكشف التي تجلت فيها كل الحقائق تباعًا، وسقطت فيها ستائر الأحاجي، أما بالنسبة للقائنا فقد تم في أكثر مكان ملائمة لتلقي دروسكِ، ذلك المكان أفضله شخصيًّا وقد قمت بالعديد من الرحلات إليه مع الكثير من الطلبة غيركِ وقد كانت جدتكِ تتمنى أن تزوره ذات يوم، إلا أن المنية وافتها قبل أن تتمكن من تحقيق أمنيتها، وهأنتِ تحققينها لها بذهابك إلى هناك..

قلت له:

– لو كنتُ أعلم من قبل كل شيء، لكنت سامحت والديّ منذ زمن ولما كنت خضت كل هذا الطريق حتى أتمكن من المسامحة..

فقال لي:

-كان عليكِ تعلّم المسامحة لوجه المسامحة،لا لوجه السبب الذي يجعلكِ تتسامحين من أجله، فهذا معنى أسمى، يهذبنا كثيرًا ويُعلي من قيمة جانبنا الروحي على جانبنا المادي، يجب على الإنسان أن يسامح لكي يرتاح هو أولًا لا ليريح من يسامحهم، يجب على الإنسان أن يدع الأمور تسير في حال سبيلها برغبته، لا رغمًا عنه..

لم أملك ردًّا على كلمات اللاما، فقد كان يتحدث وفقًا لفلسفته التي تعلمت منها الكثير والتي صرت أومن بها أنا الأخرى.

سألني اللاما قائلًا:

– هل تفكرين في البحث عن قاتل والديكِ أو الأخذ بثأرهما؟

قلت له:

– إذا كنت أفكر بتلك الطريقة، فهذا يعني أنني لم أتعلم منك أي شيء في موستانغ، ولكن كل ما أعلمه هو أنني لن أقضي ما تبقى من حياتي في الخوف، لقد كانت بنفسج تملك فؤادًا وتملكني؛ ولهذا عرفت الخوف، كان فؤاد يملكني ويملك جميلة وبنفسج؛ ولهذا عرف الخوف، أما أنا فلا أملك شيئًا أو أحدًا لأقضي حياتي في الخوف أو الاختباء، وحتى إذا كنت أملك ما أخشى عليه فلن أتخير نفس نمط الحياه الذي أختاره كلا من أبي وبنفسج بل سأحيا حياتي بلا خوف، سأستمتع بكل لحظة فيها، لن أنظر خلفي طوال الوقت فأفقد شعوري بجمال ما حولي، لن أبحث عن قاتل لأقتله، وسأعطي للأقدار سيف القصاص الباتر ليثأر بنفسه ممن ظلم، أثق بعدالة

السماء، لكنني لن أخشى الموت مثلهم، فالخوف من الموت موت إننا لا نحيا إلا مرة واحدة، مرة لا تستحق أن نقضيها في الظلام..

نظر إليَّ اللاما كابير نظرة إكبار وقال لي:

– إن بعض البشر ما زالوا داخل الدائرة، بينما أنتِ باحثة عن البراح، دعي من يدور في متاهات التيه يَدُر إلى ما لا نهاية، وحلقي أنتِ في رحابة السماء..

كان اللاما كابيير على حق، من يرغب في أن يظل داخل الدائرة فليظل، بينما أنا سأحلّق في الفضاء..

قلت له:

– لماذا لا تأت إلى المدرسة التي افتتحتها حديثًا لتهب الطلبة بعضًا من حكمتك؟ فالناس في مصر بحاجة شديدة إلى رجل مثلك، ورسالة أمثالنا أن نساعدهم، كما أنني بحاجة إليك يا سيدي، أريد أن أكون بجوارك دائمًا..

تبسم اللاما وربت على يدي وقال:

– أعدكِ أن أفكر في مطلبك، وأن أزور مصر قريبًا خصيصًا من أجلكِ..

أخذ اللاما كابيير بيدي، وسرنا بعيدًا عن المقبرة، تحسستُ قلادة بنفسج بيدي الأخرى، ونظرت إلى الأفق، لمحت كوكبًا ذي ذنب يتحرك في سرعة وخفة كأقرب ما يكون إلى الأرض لينير السماء بوهج لا تألفه الأعين كثيرًا، فنظرت إليه وابتسمت.